كما أشتهي

www.ebibliomania.com

+201065534541
+201208868826
fb.com/Books.Bibliomania/
ببليومانيا للنشر والتوزيع
fb.com/bibliomania.eg/
insta:books.bibliomania/
Books ـ ببليومانيا
fb.com/groups/Bibliomania.Books/
@BibliomaniaEg

كما أشتهي

"حكايتي"

رواية لـ

فاطمة الحلف

ببلومانيا
للنشر والتوزيع

ببلومانيا للنشر والتوزيع

نوع العمل: رواية

اسم العمل: كما أشتهي

اسم المؤلف: فاطمة الخلف

تدقيق لغوي: بسمة أطرش

اعداد ومراجعة: فريق ببلومانيا

تصميم الغلاف: همام المر

رقم الإيداع: 2018/24409

الترقيم الدولي (ISBN): 978-977-6607-57-0

الناشر /دار ببلومانيا للنشر والتوزيع

المدير العام / جمال سليمان

تليفون /26061014 (20+)

هاتف محمول/ 1208868826 (20+) - 1065534541 (20+)

صفحة الدار على موقع فيسبوك:

https://www.facebook.com/bibliomania.eg/

الموقع الإلكتروني: www.ebibliomania.com

الطبعة الأولى 1439 هـ - 2018 م

تنويه: ما ورد في هذا الكتاب يعبر فقط عن وجهة نظر كاتبه

مدخل:

فاطمة، صَديقَتي مِن حَلب، لا حاجَة الآن أن أكتُب عنها مرّة أخرى، وأنا الذي لا يكتُب عن أحد، أو لا يستَحقّ أن يكتُبَ عن أحد، لكنّها في كلّ مرة تشدّني من دهشَتي، وتضعني في التّفاصيلِ التي كوّنها غُبار الرّدم في قلبِ الأنثى -المَدينة، أفقدُ حسيّة الزّمان والمكان، ومحدوديّتهما في حصارينِ متشابهينِ جدًا، إنّها سطوة الأقلامِ التي برتها الطائِرات بمخالِبها القنابِل، وسطوة الوَرق التّراب، والحروف الذاكِرة. فاطِمة تكتُب مذكراتِ المدينة التي عاثَ فيها ربّ الحربِ خرابَه المُبجّل بتعبيرِ مظفّر النّواب، وضعَ عرشَه على جَبينِ الأطفال، واستَبدلَ نعيمَ المَدينة، وطهرها باللّحى، والفصائِل، والمتاريس المُتهالكة؛ لكي تصبح المَدينة صورة مصغرة عن طراودة، التي بناها إله البحر بوسيدون مع أبولو إله الشّعر، ودمّرتها السّنواتُ العَشر لأجلِ امرأة مخطوفَة استطاعَت شَقّ قلب المدينة، لكنّ حلب تختَلف، فقد ظلّت متمسّكة بالبحرِ - النَجاة، وبالشّعر - السِّفر التاريخيّ الحقيقة، ونهضَت من يقظة الشّك،

واختِلاط الدّم بالذنب، لترسمها فاطِمة مرّة أخرى بيدينِ من صابون وزعتر، على لوحَة سوق الهال، وجرفِ المقابر المتمدّدة بعمقِ كاتِب ضَجر، يحنّ إلى نَفسه، فاستطاعَت هذه المَدينة أن تُنقذ نفسها من إلياذة جديدة تحاوِل رثاءها، إلى سورٍ كسور عكّا رمى الموتُ قبّعته من فوقه، وتراجَع إلى عمقِ محبرة، تاركًا ذاكرة خصبة به، وغيابًا، وحبًا نبتَ في قلب المدينة – الأنثى - رباب، التي ينتظرها أمامَ البيت بجنون، ليصحَبها إلى الشّفاء التام .

كانَ لقائِي الإلكترونيّ بفاطِمة قبلَ عامين نوعًا من التّواطُئ مع القَدَر، لَم تَكن مصادَفةً أبدًا، فقد كانَ الجوّ مَشحونًا بإرهاصات اللّقاء، وحُمّى التّجلي كَانَت تُحيطُني في فَوضى الذّكريات. يَشُق عبابَ الصّمتِ صَوتُ دَرويشَ يَصرخ بي، وبِكُل الحكَايا التي تَتكدّس حَولي، بِمنيف والنّهايات، بِنصرَ الله وأرواح كليمنجارو، بِهَمنغواي، وبالكُتب المُتناثرة التي تَخلقُ فَوضاي، وأنا أكمِلُ تَحديقي فيما أرَى، مِن حَلب! إنّها كاتِبة من حَلب، أقرأ مرّة أخرى، لا أظنّها تَعيشُ هناك، رُبما نَزحت – أحدّثُ نفسي -؛ فالحَجر ماتَ في تِلكَ البقعة، وأعيدُ مرّة أخرى التأكدَ

من ذلك، فأوّل درجاتِ اليقين شكٌّ ديكارتيّ عميق، لقد كانَت هُناك، وما زالت هُناك ساطِعة.

فاطِمة أتمنى أن ترى مخيّلتك الثانية النور، وربّما من هُنا أيضًا، حيثُ المرايا، وانعِكاسات الهواء، وتجلّيات الصّمود، وحيثُ القداسة التي يَعبرها المَجاز - الكلام، قبلَ الجسَد، فربّما ليسَ للتاريخ أيّ معنى إذا لم نَعبث سويًا بمخيّلته المُكرّرة، وليسَ لأبولو أيّ قيمة إذا لم نَحمِه من موتٍ مرتَقب على أطلالِ مدينته، وليسَ لطروادَة أي خلود، إن لم نَكن نحنُ: شاعِر طروادَة، فغيابُ الشّعر والأدب عندَ شعبٍ ما سبب كافٍ لهزيمته، كما قالَ شاعِرنا درويش ذاتَ وحي، وأضيفُ الحب، ولو كانَ جبلًا للتجربة المرّة.

مهنّد ذويب

رام الله، فلسطين

قرأتُ مرّة عبارة لصموئيل جونسون، يقولُ فيها:

"عمومًا، ما يكتب بدون جهد تتم قراءته بدون مُتعة"

وكلماتي هنا قد أخذت مني الكثير حتّى استطعتُ كتابتها، وكنتُ قرّرت تقسيمَ هذا الكتاب لعدّة محاور، إلّا أنّ الحكايات نازَعتني جدًا، فقررت أنّ هذا قد يكون: حكايَتي، أو مذكراتِي!

(1)

لم أكُن أنوي البداية من هنا، أو مِن هذا اليوم تحديدًا، إنّه السابع من شباط لعام ٢٠١٧، والساعة الآن تدقّ الثامنة وأربع وأربعون دقيقة صباحًا حسبَ توقيتِ مدينة حلب، بدأتُ اليوم؛ لأنّه يجب أن أبدأ الآن، ويجبُ أيضًا أن أكفّ عن التّراخي.

رأيتُ كلّ شيء، رأيت أنّنا جئنا إلى هنا على أقدامِ الحِجارة، رأيتُ أكوامَ الرّصاص كجثث الحياة داخِلي، وفتات الحجر، وحتّى جذع الشّجرة المقطوع بقسوة شاهدته يبكي، كانت روحي آنذاك ساهية، وأكوامُ التّراب تعيقُ حركتي، وتجعلني أتعثّر في المشي، لم أعرف منزِلنا، رغم أنّه ما زال صامدًا، أو يحاوِل الصّمود، وربما لم يتغيّر به شيء، سِوى حشائش فقدت لونَها، واكتَسَت برماديّ الحرب، إنّه لا يشبه آخر مرّة رأيته فيها، كان حزينًا، وربما وحيدًا، إنّ أبوابه تبكي يا سادَة، ونوافذه تأبى أن تفتح، لم يكن كما عهدته متفتّحًا كجلنارة، هذه المرة كان على الأغلب قد فارق الحياة، كباقي المنازل في ضيعتنا!

أما أنا فبدأتُ بتجميع شَظايا الموت، يدانِ صَغيرتان على حافّة الرّصيف، ووجه أنثوي متشابِك التّضاريس، مغطى بعبقِ الدّماء وشهقاتِ التّراب، كدمية على ناصِية بقايا الشارِع، غائبة عن الوعي !، كانَت لطفلة تعبر الشارِع قبل أن تسقُطَ القذيفة على جسدِها الطّفل، وتمحو آثار الملائِكة!

وكان هناك حذاءٌ معتنى به جيدًا، أظنّ أنّ صاحبه كان يخبّئه ليرتديه في العيد القادم، رأيت ذلك من انعكاس ظله، وبقايا قلب صامت بلا نبض، وصورة عائلية ممزقة لم يبق منها إلا وَجه. كوّمتُ المشاهِد على حافّة الذكريات، حاولت مسحها ببعض من الحب، ضممتها كأن لي أثراً في تلك البقايا، أو ربما كنت كتلك المدينة الكبيرة الضّخمة التي حضنتها كل ذلك العمر إلى أن دمرتها بضع رصاصات حجمها أصغر من الكف.

تفعل الحرب بنا كلّ شيء، وتأخذ منا كلّ شيء، وتدمّر حتى قلوبنا؛ لتكونَ هي كلّ شيء!

مآسي النكبات تأتي على دفعات متتالية بعد انتهاء الحرب، لكن يقال إنّه بعدَ برهة من الزمن، بعد تلاشي حُطام الحرب، ستعلو الأصوات محاولةً الوصول إلى السّماء، لينزوي الألم، وتسدل ستائر القهر على مسرحيّات الغياب، ويكون هنالك مجيب وحيد وواحِد: هو الله، فتتغيّر الرؤى، وتبدأ الحياة التائِهة بتجميع يقينِها بالعدالة الإلهيّة، وتتحول كلّ السبل، لمسار يقطعه الجميع نحو الحياة في المدينة الفاضلة.

جميع الذين خَسِروا في الحَرب من أرواح، وسلبت منهم الحياة، وتجمعت في أحشائِهم أبغض أنواع الذلّ والقهر، فازوا في النّهاية، أو ما بعد النهاية، فهنالك عندما يكون الله الحاكم الأول والأخير في كل شيء، ستتدحرج الأحزانُ من روح هذه المدينة إلى فضاءِ عرشِه، وسيعم السّلام في سكون نبضهم الذي لم يعرف الصّمت طيلة أيام الحرب.

(2)

بعد عام كامل

شباط -2018

من حلب، يقال أنّ الحرب انتهت، وآثار القتل قد زالت من هذه المدينة التي لطالما عانى كلّ شبر فيها من الغرق، بحر من الدّماء، في هذه المدينة قُتل الكثير، وشُرّد الكثير، واختفى الكثير الكثير، أقطن في حيّ الفرقان أحد أحياء حلب، حيٌّ كان قبل الحرب يتمتع بالهدوء، ويعدّ من الأحياء الراقية، أما الآن فهو الحيّ الأكثر شعبيّة في حلب، يباع هنا كل شيء قد يخطر على بالك، من الصابون حتّى الخضار الذي كان يباع بسوق الهال سابقًا، هنا تجد الفقير والثري في ذاتِ الشارع، أحدهم ينام على حافة الرّصيف، والآخر يمشي نحو سيارته الفارِهة: الرانج روفر مثلًا.

لم تعد حلب كسابق عهدها، لم تعد كما كانت قبل الحرب، اختفى سكانُها، هاجروا، أو رحلوا نحو المقابر بلا تذاكِر، ورغم ذلك ما

زالت تعجّ بالسكان، لكن لم تعد تلك الروح التي لطالما عهدتها بين أحيائها، لم تعد الحِجارة كما كانت مصفوفة كأوراق الشّجر، فأمسى الشّتاء هنا صيفًا، والربيعُ خريفًا، وأصبح كلّ شيء يتساقط، حتّى الأجساد باتت تسقط بشكل متتالٍ، حتّى أصبحَ من الصّعب توقّع أدوار السّقوط.

في سِنين الحَرب عشتُ أحداثًا مختلفة، ربما أنا الأقل خسارة بينَ أهل حلب في هذه الأزمة، اختفى الكثير من حولي فجأة، وأصبح والداي مجرد زائرين لمنزلنا، و رزقنا بأحفادٍ رائعين، لم نحظَ برؤيتهم إلا من خلال الصّور، منزلي الذي كان يسكنه عشرَة أشخاص، أصبحنا اليوم فقط أربعة، ليس فقط في المنزل وحتى في حلب كلّها، تزوج إخوتي، و رحلوا لبلد آخر، بحثًا عن حياة لأطفالهم، و ما كان على والديّ إلا أن تناوبوا في العيش بيننا وبين باقي إخوتي، الحياة باتت أصعب، لم نعد نشعر بشيء، أصبح هذا المنزل ملجأ للنوم والدفء في الشتاء ليس أكثر، ربما أنا الأقل خسارة من بين كل من كان قدره حلب، لكن لم أعد أشعر بشيء، وفقدت البهجة التي كنتُ أحسدُ عليها منذُ بدأت الحرب.

(3)

قبل عدّة أعوام وبتاريخ مماثل لليوم، كانت الأمطار غزيرةً، وكان الجوّ داخلَ المنزل دافئًا يشوبه أصوات ضحكات، وتكلّله رائحة العجين المخبوز، كانت أمي تصرخُ على أبناء إخوتي الذين ملؤوا البيت بضجيج أصواتهم وضحكاتهم، قبل عدّة أعوام، وفي مثل هذا اليوم، كانَ أبي يركنُ سيارته، وإخوتي يصعدون إلى المنزل محمّلين بأطيب أنواع الفواكه، والحلويات، ويركض الصِّبية لمعانقة جدّهم وتقبيل يده، قبل عدّة أعوام أيضًا كانت أمي تحضّر الطعام للاحتفال بأوّل أيام العيد برفقة أختي التي غادرت منذ زمن هذه الأرض، وتخطط للذهاب إلى خالتي بعد صلاة التّراويح، خالتي التي لم تعد تسكن في هذا الوطن، قبل عدّة أعوام كنّا نعيش هنا.

أما اليوم باتت الذّكريات مختلفة، فأنا أذكر جيدًا قبل شهر ونصف وربما أكثر من الآن كيف كانت حلب، أصوات الرّصاص هذه المرّة كانت للتعبير عن الفرح بانتهاء مأساة حلب كما كانوا يزعمون، أصوات عنيفة كنّا قد اعتدنا على مثلها، فأنت مقيمٌ في حلب.. أخطر

مدينة كما كانوا يصفون هذه المَدينة البائسة، الزغاريد تكاد تقتلع حَناجر النساء من شدّتها، والتكبيرات ترتفعُ أكثر من الطائِرات، وكأنّ اليوم أوّل أيام العيد، وصديقتي تسرد علينا قصة ابن اختها، كيف عاد والدمع نهرٌ على وجنتيه، قالت: ذهب ابن أختي اليوم إلى منطقة صلاح الدين، فأوقفه اثنان من قطّاع الطريق (شبيحة)، واتّهم بأنه إرهابيّ، وفي النّهاية أخذوه إلى مكان مغلق، وقالوا له: أعطينا ما لديك، تمنّع الشاب الصّغير، نخيّروه بينَ صَدره، وما لديه، استسلم، وأعطاهم، فسَمحوا له بالذّهاب، أيّ نصر كانوا به يحتفلون ؟؟؟

قالوا انتهت الحَرب، والرّصاصة تسبحُ في جوف السّماء.

بدأ صباحي برعشة قلب، حينما دستُ على جناح حمامة ميتة دون أن أدري، ننظرُ ثانية علنا نبصر النور من جديد، علنا نرى الإله بعيون قلوبنا، لننظر إلى الوطن بغيرِ منظارٍ عسكريّ، علها تكون فعلاً النّهاية.

برأيهم قد أتى النّصر بعد أن تغيّر كلّ شيء، ففي الأول من شهر كانون الأول من عام 2016 حينما بدأت حركة النّزوح من المناطق

الشّرقية إلى (المحالج) في منطقة (جبرين)، كان أسوء يومٍ في حياتي، ساهمت في تلك الفترة في مساعدة النازحين، كنت متطوعة مع إحدى الجمعيّات الخيريّة، وذهبت مع عدّة رفاق لهناك ورأيت مصائب الناس، رأيت معنى الدّموع الجافّة، وما فعلت الحَرب بهم وبنا، رباب التي ما زال صوتها يدقّ سمعي في كلّ ليلة، وهي تقول:

" كان يومًا داميًا، كأيّ يوم عصيب يمرّ على حلب ، النّوافذ تشهق، والأبواب تدق، ورائحة البارود تنتشر في الأزقة، والحزن والخوف يرافقان الجميع كالظّلال، لم نكن نعرف ماذا يحصل فعلًا، أصواتُ الدمار تكاد تفقدنا حاسة السّمع، وأشلاء الضحايا تتطاير بين السّماء والأرض كالملائِكة، كان صباحًا كئيبًا، والشّوارع حزينة، وحتّى ثيابي كانت تأبى أن أرتديها للخروج من المنزل، نهضت من سريري كعادتي، ونظرتُ نَحو المرآة، وجدتُ وجهًا شاحبًا لسيدة في الأربعين، أكلت السّنين من وجهِها، أفزعتني ولم أكن أصدّق أنها أنا، فتاة العِشرين، في حلب لا فرق بين عشرينيّة وأربعينيّة، وحتّى لا فرق بين الطفل

والمُسن، هنا تتعلم كيف تكبر بين كل طلقة أو قذيفة، وربما يزداد العمر حينما يهدم حائط منزلك فوق أولادك!.

ارتديتُ ملابسي، وأمسكتُ حقيبتي وخرجتُ من المنزل كعادتي إلى العَمل، وكان يقف بانتظاري على رأس الشارع، أذهلني كيف خرج من منزله الواقع بين (حبكة) الاشتباكات؛ ليأتي ويأخذ بيدي حتى لا يتركني وحيدة، كان يعرف أنّني سأذهب، وأنّ عنادي يفوق كلّ شيء، ويعلم حبي لذلك العمل الذي كان السبب في معرفتي به، كان رائعًا كعادته، يقف على حافّة الرصيف، مسندًا ظهره إلى عامود الكهرباء، يرتشف فنجان قهوته المعتاد، ويرتدي سروالًا من الجينز، كحليّ اللون، وقميصًا أبيضًا، وسترته التي أعشقها: ملاذي عند هطول المطر، ينتظرني، وحينما تلمح عيناه عينيّ، يضحك ثغره حتى يكاد صوت ضحكته يفوق صوت القَصف، ويغيّبُ عنا أصوات القتل، تلمعُ عيناه لرؤيتي فأضيء أنا، كنتُ أتمنى في كلّ يوم وكلّ مرة يأتي بها ليأخذني أن أركض وأعانقه، ولا أسمحَ حتّى لأصوات الموت أن تفكّ عناقنا.

-جاءت حبيبتي

-هل أنتَ مجنون؟

-نعم.. بكِ!

-صدقًا ما الذي جاء بك؟ ألا تفكّر أنّني سوف أموت إن حصل لكَ شيء؟

-أموت أنا ولا يحصل لكِ شيء؟

-مُحال.. سأحطّم الموت إن حاول الاقتراب منك.

-لهذا السبب أتيت، لأنكِ تحمينَني حتّى من الموت!

-أها، أحبّك فوق الحب ألف حب، ولو كان هنالك أكبرُ من الحب لوهبتك إيّاه.

-وأنا أموتُ بكِ.

فردتَ لي يدك، لأضع أصابعي بين أصابعك، وجذبتني إليك، ولم نكترث لأصوات القتل من حولنا، كان الموت يحيط بنا، موتٌ من الطّراز الخاص بمدينة حلب، كنّا عاشقين لا نأبه لهذه الحرب، كنّا من النوع الذي لا يرى العالم إلا من خلال محبوبه ولأجل محبوبه، نفتّش

عن أساليبِ العيش تحت سقف واحد، كان هذا كلّ همّنا، أدق التفاصيل كانت تشغلنا، كالأريكة أو مكان التلفاز، وزاوية الشرفة، وطول السّجادة، ومكان السّرير، وأشياء أطفالنا، وحتّى فناجين القهوة التي سنحتسيها أمام المدفئة مع قطع الشوكولا المفضلة لدينا، والأرضية ونوع الخشب، ذلك السقف كان كل حياتنا، أو ربما كان حلمنا الذي نسعى لتحقيقه كل يوم.

الحب.. هو أسمى الأحلام، وربّما هو الخيرُ الأسمى، قمّة السعادة، ولم يعد هنالك شيء آخر يستحق العيش سواه، كنّا نتكئ على ذلك الحلم عندَ حافة القصيدة التي لا نُريدُ أن تنتَهي!، لكنّ صوت القذيفة كان أسرع من حلمنا الذي أيقظنا، حينما سقطت أمامنا واندثرت الشظايا في كل مكان، لم أكن أشعر بشيء سوى بوحيد يلتف حولي محاولًا حمايتي لتخترق ظهره عشرات الشّظايا ويطبع على صدري دمه. "

مات وحيد، ولم أكن أرملة العشق الوحيدة، كان هنالك ثكالى وأرامل كُثر، كانت هذه حكاية رباب وما أكثر الرّبابات في حلب.

لم تنتهي الحَرب، لا بالزّغاريد ولا بأصواتِ رصاصات نصرهم، ولا بتوقف سقوط القذائف، وبانعدام أصوات المدافع، لم تنتهي الحرب فمازال الثّكالى يندبون أبناءهم.

(4)

" -إنّه يبكي؟

- لا، بل إنّه صمد حتى أشفقت عليه عيناه. "

جلال الدين الرومي

نيسان: في الثامن عشر منه، زيارة لخالتي أخت أمي، وحديث مغلّف بالدّم

- يا أختي من أوّل ما انفقد ابنها، واستشهد ابنها الثاني وصهره وهي بتطلع ع الشارع وبترقص.

إنّها رقصة الألم، ونظرات المجتمع لتلك المرأة التي لم يعد العقل يدرك عمله داخل رأسها، وهل للعقل أهميّة أمام مصائبها، ويلٌ للحرب، وويل للنّفوس الشامِتة، الرّقص على الألم، رباه أعلم أنّ نصيب تلك المرأة الجنة، الجنة بإذنك يا الله!

الحزن إله الألم، مقطوعةٌ موسيقيّة يعزفها أحدهم، تبدأ بدندنات خفيفة، وتستمرّ لتعطي أجمل الألحان، ولكن ذلك العازف أخطأ وقطع أحد أوتار تلك الآلة، واستمرّ بالعزف قاسيًا، شرهًا للحن الحُزن،

تغيّر صوت الآلة، لكنّها استمرّت، لربما تلك الأوجاع كونت تلك المقطوعة الموسيقيّة وحزنها هو العازف الذي لم يفكر بإصلاح قيثارته، بل اختار الحلّ الأسهل واستمر بالعزف، حتّى باتت ترقص وجروحها تنزف، ترقص وقلبها لا يقوى على الحركة.

(5)

لنعود قليلًا إلى الوراء، إي لعام 2012

كانت أمي تعدّ القهوة وأبي كالعادة يتابع نشرة الأخبار ذاتها، للمرة العاشرة وربما أكثر، إخوتي منتشرون في كل مكان، نحن ثمانية هذا الرقم الذي يشل حركة كل من سأل عن عددنا، رغمَ أنّني أرى عددنا طبيعيًا، لدي أربعة أخوة وثلاثُ أخوات، نحن أولاد ريف وُلِدنا هناك، من رحم الأرض خرجنا، ضيعتنا الشيء الوحيد الذي يميّزنا عن باقي الناس، نحن أبناء الطبقة الكادحة، أبناء الفلاحين الذين لا يقدّرون كما أبناء المدن، لم أرغب يومًا في أن أميّز، أو أن أقول إنّ هنالك خطأ في ذلك، لكن لطالما تهزأنا بكلمة أبناء ضِيع، فلاحين، رغم أنّنا نعتز بذلك.

يقول الخبر العاجل التالي لقد تم السّيطرة بالكامل على كرم عزيزة!

- يعني بابا منقدر نطلع ع الضيعة؟

- خلال سنة ممكن بس هلأ مستحيل

- ليش بابا!؟

- لأنها مليانة ألغام، ولأنّ الطريق خطر!!

أحبّ تلك الأرض، ربّما لم نزرها منذُ أربع سنوات. قلتُ في نَفسي.

تدخّل أخي الصّغير، المحلل السّياسي، وقال:

- على فكرة خلال شهرين إذا الجيش تقدم باتجاه الأحياء الشّرقية من حلب بتخلص حلب، وعلى راس السّنة بتكونوا بالقلعة..

القلعة (إيييه) حلمي أزورها، رغم أنّني من حلب، إلا أنني لم أزر قلعتها إلا مرّة واحدة، حينما كنت في الصّف الثاني الابتدائي مع إخوتي الذين سرقوني من صفي حينما شاهدوا دموعي تفيض، مما جعل

أخي الكبير يصرّ على أخذي معهم في تلك الرحلة التي مازالت محفورة في ذاكرتي.

أدعى فاطمة عمري الآن أربعة وعشرون شتاءً، لا أحبّذ الرّبيع، أنا من مُناصري فصل المَطر والثلج، فصل تتجدد روحي بهِ تلقائيًا، لا أعرف الحديث عن نفسي، ولكنّي فاشلة دراسيًا، متسرعة بشكل لا يوصف!، أحبّ التّعبير عن مشاعري بالكتابة، ولا أخفي حبي أو اهتمامي بأيّ أحد، بعضهم يقول عني صافية لم أعكر بعد من هذه الحياة، وأحدهم قال لي ذاتَ مساء: " إنّ طيبتي هي أروع وأسوء ما لدي"، أحدهم هذا كان على حق.

لدي كميّة حنان تتسع للعالم أجمع، وأنا التي تخالف مقولة فاقد الشيء لا يعطيه، أكتب الشّعر منذ الصغر، أحبّ الاستماع للموسيقى، لم أدمن يومًا على شيء كإدماني على صفحتي لدى موقع الفيس بوك التي أغلقت لأسباب أجهلها، لا أفضّل أي نوع من المشروبات، لكن من جديد أصبحت أشرب اليانسون بكثرة، ولا أستطيع مقاومة كوب تمر هندي قد يقدم لي بعد عدة ساعات من الصّيام، أعشق المطر بكل

طقوسه، غزير، قليل، برد، مقطّر، أعشق رائحته القادمة من السماء الممزوجة بعبير الأرض لتخلق أجمل عطر، لدي هوس بالكتب، أحب انتقاءها كما تنتقي الفتيات فساتينهنّ، وأعشق البطاطا، شبه نباتيّة لا أتناول اللحوم، أعشق الخضروات، ومن أحلامي أن يكون لدي بسطة خضار.

أنا لستُ صاحبة بشرة بيضاء ولا حتى سمراء، حنطية، هذه هي أنا، فكما قلت لا أعرف الحديث عن نفسي.

أنا لم أكن يوماً هُنا، كنتُ دائمًا أجلس في زاوية على رصيف ما هُناك، حيث تكون الحياة بعيدة جدًا، حيث يكون الرّقص مباحًا، لا بل واجبًا يوميًا، حيثُ يتدفق النهر بخفة فوق العشب، مع أنه لا وجود للنّهر هنا، ولا للرّقص ربّما.

أجلس ولا أشعر بمن حولي، أكتب فلا أبصر إلا ورقتي وقلمي وشِغافِ قلبكَ، وأصابع يدي تتحكم بمفاتيح القلم، تكتب، ترقص، وتزيد جنونًا في موسيقى الكتبِ.

هنا على حافة هذا الرّصيف أشعر بدفء أكبر حتى من منزلي، هنا أملكُ حريتي، أصرخ فيرتدُّ الصّدى أعلى، ويعشعش الصوت في أحشاء صمتي، حتّى جريان الدّمُ في عروقي يزغرد يغنّي ولا يكتفي.

أنا لم أكن يوماً هنا، أنا حيث تقول أمي دائمًا:"في مكان ما حيث الحياة تنتهي" ، أمّي لم تكن معلّمة لغة عربية، كانت أميّة، لكنّها من زرع الإبداع في مخيلتي، وتقول عنه: " إنّه سبب الصّرع في عقلها"، رباه كيف تكون الأمهات إذا لم تكن مثل أمي !؟

هي تشبهُ إناء الحنين المخبّأ في أعلى رفوف مكتبتي

تشبهُ الكحل الذي أرسمه في عينيّ ..

هي أمي.. وأنا قطعة منها

أنا لم أكن يومًا هنا، أنا هُناك حيث جدّي يزرع حبات القمح، جدّي فلاح، فما أروع الحقل المكسُوّ بيده، هناك حيثُ ولدت بين أعشاشِ الطيور، ونَبَاتَات أبي الذي لم يكن طبيبًا أو مهندسًا، لكنّه قال لي:" إنني لهذه الحياة لا أنتمي، حتى أصبحت أجهل كيف أحتوي هَواها"

أختارُ بعضَ الكتبِ
وأحمل دفتري وقلمي
وأعود لزاويتي في ذلك الشارع ..
أجلس على جانب الرصيف المقابل لمقبرة جدتي
جدتي التي كانت تصرخ في وجهي وتقول لي
هذه الحياة لا تُلائم عينيكِ .. تعالي فأنا أنتظركِ ..
فأكتب.. أكتب ما يدور في جمجمتي
أسحب أنفاسي، أنظم نبضاتِ قلبي .. أخطط لتاريخي
على دفترٍ أُلصِقُ على سطحهِ
حروفي بلونِ رصاص قلمي ..
وأختفي، إلى قرب جدتي..

(6)

في الحرب تغيّرت النفوس، القلة بقيت على ما هي عليه، لكن معظم الناس في الحرب يصبحون أشباحًا لا وجود لأرواحهم هنا، لقد حدثت الحادثة الأليمة التي كانت السبب في كل هذا الدمار في صيف عام ٢٠١٢ حيث بدأت خيوط الهلاك تتشابك في كل الشّوارع، كانت البداية باختفاء الناس وسفرهم، ثم بالرصاص والقتل والدمار وسمفونية الموت اشعلت حركة النزوح، أذكر يوم ولادة أختي بطفلها الأخير، حينما كنا في المشفى ولدت سيدة أخرى معها وعندما سألت:

- شو راح تسموه؟

- قالت: نازح!

ربما كانت تمزح، على الاغلب كانت تمازحني، فهو يستحق أسم يوسف أو جميل أو محمد، يستحق اسمًا رائعًا كروعة مجيئه إلى هذه الحياة.

لم تمنعنا أصوات المدافع وقذائف الطيران ورصاص الحرب من أن نستمر، وأن نقاوم شتّى أنواع الموت الذي حاصرنا، ذاقت حلب مرارة الحياة، لكنها منحتني قصة لم تكن بالحسبان!

وحدها حلب تمتلك خيوط حياتي وتتحكم بها كما تشاء، وحدها هذه المدينة تفهم مزايا قلبي وتسيطر على روحي وتأخذني حيث الهوى غلاب!

وأيُّ هوىً هو ذلك الذي بدأ بأجمل الكلمات وانتهى قبل أن يتوج بشيء، انتهى حيث يجب أن أكون لوحدي دون أيّ أحد لقد كان لظهوره معنى، جاء في وقت الحرب، في وقت لا يشبه إلّا الحرب!!

لماذا لم نلتقي قبل ذلك؟

يراودني هذا السّؤال كثيرًا !، ولماذا اكتشفنا أن الشغف كان بيننا في وقت متأخر؟ مع أننا كنا نعرف بوجودنا في هذا العالم، ولم نكن بحاجة لأيّ مصادفة!!

ربّما قد يكون السبب غضب فورتونا علينا لذلك لم نلتقي كعاشقين، أو لأنّ القدر شاء أن يجتمع كل من كيوبيد ومارس في قصتنا، حتّى لا نلتقي في حديث هيام قدْ يطول أكثر من المُتوقع.. ربّما! كان قدرًا أو صدفة.. لا أدري!

لكنه بدأ وانتهى.. كغناء فيروز.. وربما كحكايتها ...!

متى أحبك!؟

فأزرع سنابل الشغف في صَدْرك

وأحصد قمح ودك

وأحبك بِمعنى تلك الكلمَة حرفًا حرفًا

حتّى تتشابك أصابع يدي في يدك

وتحضّر لي وردًا أزرق

وتشعل أنغام صوتك الغيرة في رُوحِي

فأنا أخاف أن يسمعك غيري فيسبقني لغرامك

متى أحبك!؟

وتأتي لتزور أمي وأقول لكَ:

"مدايق منها هيدي أمي بتعتل همي"، منك أنت..

وأخاف أن أحبك.. ويكون مصيري كفيروز.

وأحببتك وصدقت فيروز

لم يكن الحب إلا قضيّتي الأولى ومصيبتي أنني لا أعرف الكره، أنا فقط أحب.

في الليلة التالية للقائنا الأوّل، اتصلت بي بحجة العمل، قلت أشياء كثيرة.. لم أكن مهتمة لها ولا حتى لك، خاطبتني بصفة القائد وتارة حدثتني وكأنك طفل رضيع تحتاج للاهتمام، نعم للاهتمام بعد أول لقاء.. طالبت بذلك، فأي حب هذا الذي بدأ يستعمر قلبك؟

-كيفك؟

-منيحة، أنت كيفك؟

-مشتقلك

لم أكمل الحديث.. لحسن الحظ أنها محادثة واتس آب!

لففت جسدي الصّغير باللحاف وخبأت رأسي تحت الوسادة، كان لتلك الكلمة أثر في ذاتي، رغم أنها ربما تكون مجرد كلمة تقال عند السؤال عن الحال، كنتُ مستمتعة، تارة أضحك وأخرى لا أدري من أنا!

لم تكن عظيمًا ولا جميلًا للحد الذي يدفعني إليك، وللاحتراق في لهيب عينيك، كنت أنت فقط وكان حضورك بجانبي يجعلني أفكر ككل فتاة في العالم، الحُب!

غريب أنت، تعشق الأغاني الطربية، وفك شيفرة المفردات المعقدة، وتهوى العيش في سلام، تقول عن نفسك أناني.. وأنت أكثر من أن توصف بكلمة أنسان، ما يزال في جمجمتك تلك الحيرة التي تحرق كل شيء من حولك، تارة تقترب مني كالنمل على قطعة سكر وتارة تهرب وكأنني ركام مدينة هدمتها الحرب.

نعم أنا تلك المدينة المشوبة بالحجارة والتراب، وبقايا الرصاص، أنا تلك المدينة التي بات أطفالها خبراء بأنواع الرصاص، فيقولون لك عن نوع الرصاصة ربما تكون للدوشكا أو مجرد رصاصة بندقية، حتى أمي باتت على دراية بتلك القصص، فأصبحت ذو أذن موسيقية تنوح عند طلوع القذيفة ويهبط قلبها عند سقوطها، أنا تلك المدينة التي يشهد التاريخ عليها وعلى حجارها العتيقة وأرصفتها الرقيقة، أنا هذه المدينة بأبوابها:

أنا باب النصر وأسواقه

وباب الحديد وحوانيته،

وباب أنطاكية وصابون غاره،

وباب قنسرين ومقاماته

وباب الفرج وساعته،

أنا باب المقام وخليله،

أنا باب الجنان أو كما يقول عنه أبناء مدينتي باب جنين وبساتينه،

أنا الباب الأحمر وتاريخه..

أنا باب النيرب وريفه.

أنا القلعة وحكاية التاريخ تشهد أن حلب هي ملاذ السلام.

(7)

كأننا لا نعرف من نَحن.. في الحبّ نصبح جهلة، لا شيء يكشف عن حقيقتنا سواه.

اليوم هو أول أيام عيد الفطر المبارك، جاءتني معايدتك وكأن العيد ينتظر حديثك حتى يبدأ، لا أدري لماذا أختصر العالم بك، وأعيش يومي بسببك، أتدري لقد رغبتُ في لقائك في هذا اليوم، اشتهيت أن تستيقظ على أوتار صوتي وأنا أناديك، لنصلي صلاة العيد معاً.

اشتهي مرور أصابعك على تفاصيل وجهي، بداية بسنابل شعري مروراً بوجنتي.. صدقني هذه اللحظة تسكن قلبي، كأن خيالك هذا هو شفاء لروحي من كل العللِ.

إذًا دعنا نلتقي بعد حين، بعد يوم أو ساعة أو بعد عامٍ ونيف، نلتقي.. ربما في آلة التصوير، أو في معنى جديد.. نلتقي بين أن تأتي أو لا تأتي.. جميعها ينصفني.. يكفي أن تعدني ولا يهم أن وفيت في الوعدِ، أتذكر.. عصافير جبرين ونظرة الحنين! يوم أحببتني.. في سن العشرين،

وهبتك قلبي ورسمت طريقنا كما أشتهي، كم أتوق لأن أجلس معك على حافة ذلك الرصيف.. تحادثني عن أشيائك وأحدثك عن حروفي، أسرد بك خاطرة وأكتبك قصيدة.

صدقاً لا أدري، لماذا تحولت بالنسبة لي لشخص ألوذ إليه كلما شعرت بحاجتي للحب، يكون قلبك ملاذي الوحيد، صدقاً لماذا أنت لا أدري؟

ربما حينما تكون خالياً من عنصر الاهتمام، ولا تعرف معنى مفردة الحنان، ولا يجوز لك أن تسأل ماهي السعادة، تلجأ لأي كلمة تقال لك، تتشبث بها وكأنها ملاذك الوحيد من الحزن الدفين في أعماقك،

وتبدأ بالنواح وتقول: ليته كان هنا..

حتى جاء ذلك اليوم الدفين وقرر الابتعاد.. اختلفت معايير الحياة لدي وأصبحتُ مصابة بمرض الذكريات، كل ذلك الوقت كان ممكن أن يكون شيئاً آخر غير تلك الخيبة التي سيتركها لدي قبل رحيله، المشكلة أنه حينما يبتعد ثم يرحل لا يكتفي طيفه عن ملاحقتي،

فتنادي روحي يا الله ما الذنب الذي اقترفه قلبي حتى يلقى كل هذا العذاب.

ما أشهى تلك الذكريات الممزوجة بعبق الماضي.. ما أجمل ذلك اليوم الخريفي منذ أكثر من عام حينما قلت لي أحبك، كانت الغيوم تسبح في السماء والقمر يستحي ممن يظهر أمام جمال بريق عينيك لحظة نطق ثغرك بتلك الحروف، قلت لك ما أجمل الخريف، أجبتني جميلٌ لأنكِ ولدتِ أنتِ فيه.

كان رائعاً وكانت كلماته كالبراعم التي تزهر من جديد، (قلي بحبك.. وبعدها راح...).

وكل صباح أتى بعد ذلك، كان مساء، كان لا شيء، كان عتمة بلا قمر، كان مجرد وقت بديل يجري على أمل أن ينتهي بشهقة علها تأخذ الروح إلى ربها.

(8)

في ذات التوقيت قبل اعترافك لي قبل حديث الغرام ذاك.. في حلب في منطقة المحافظة وعبر شارع سوق الانتاج كان يومنا الأول..

لم يكن يهم تعارفنا.. فنحن نعرف بعض منذ زمن بعيد.. حيث خلقنا نطفة وتكوّنّا بجنين، في ذلك الوقت علمنا بوجود قلبينا.

كنتَ غصة قلبي التي أعلم باستقرارها في أحشائي، لم يسبق لي أن عشت حكاية كهذه ولن أعيش.. فبعد رحيله، غدوت جسداً يتحرك لكن بلا روح، كل الوقت الذي أتى وسيأتي بعده، هو مجرد رقم سيدخل في عدد عمري ولن يكون شيئاً آخر.

كان الشاب الريفي ذو الوجه الباسم دوماً، زرقة عينيه مشتقة من البحر وظلام شعره هو من صنع سواد الليل والشامة على الخد الأيسر لطالما كانت سبب الهلاك لقلبي، لم يكن من هذا العالم،

مررنا بالرازي وأكملنا السّير نحو الجميلية، كنتُ ذاهبة لشراء عُدّة رسم، شاصيه وألوان زيتية وبعضُ الريش بدرجات مختلفة، وزجاجة نفط وبالية لمزج الألوان، كان يحب الرّسم ولهُ محاولات بالرصاص:

-بتحب الرسم؟

-بحبه لأنه انتِ بترسمي؟

-فيني أعتبره غزل!

-فيكي تعتبريه حقيقة..

لمعت عيناي فجأة وتجمدتُ وأنا أنظر إليه، لم يسبق لي أن صمدتُ كل ذلك الوقت، وأنا أنظر إلى عيني أحد مباشرة، كنا في منتصف الرّصيف، لم آبه بكلّ ما حولي ولم أشعر بتخبط الناس بي، فقط كنتُ أستمتع بالنظر إلى سماء عينيه، لم أكن أدرك عبثية هذا الحب، كان كل شيء، وربما الخطأ الأكبر الذي اقترفته أنني اكتفيت به.

بدأت زخات المطر تعلن وجودها، حتى تغير مسار هذا اليوم قليلاً، كنتُ بحاجة لأن يربت أي أحد على كتفي، حتى جاءت حبات المطر لتفعل ما رغبت.

-منمشي؟

-طبعاً منمشي.

ومشينا وأنا اتشبث بذارعه وكأنه أبي..

وأصبح ذلك اليوم مجرد ذكرى.. كما كان حديثنا في ذلك اليوم من تاريخ 12شباط 2014:

كان حديثًا عابرًا، بل كان مخططًا له، أجابني بعبارات منمقة وزرع هواجس الشك في أفكاري، برأيه نزوات القلب لا تشارك، سألته عن غرامه فقال اسرار الروح لا تحكى، حاولت أن أقتص منه حكاية حب فكان الرد: لا أريد أن أظلم مفردة الحب، لماذا لا تشارك نزوات القلب!؟ يبدو أنني رأيت هذا المشهد قبل حدوثه بنيف، رأيت ذلك الشاب بلا وطن، وحوله الكثير الكثير من احتمالات الاغتراب، ينظر للحياة وكأنها رواية، يسارع لأن يمد أصابعه نحو الأعلى، يحاول انتزاع شيء ما، ويهرب برأسه نحو أي شيء في كل مرة اسأله بها عن مكان قلبه، يصمت فهو لا يستسلم لسؤالي، إلا إذا وجد وطنه، أظنه مغترب، لم أكن أريد أن أكسب وده، كل ما في الحكاية أنني أرغب أن يشاركني نزواته العابرة.

كان ينقصك فقط الاعتراف.. والقفز فوق الحواجز، حتى لو جرحت، فأنت تبحث عن وطن وعليك أن تستخدم كل السبل في سبيل ذلك.

لقد كنت مختلاً أنت والدخول في زوبعة الحب معك أشبه بالمتاهة، دعنا من ذلك وقل إلى أين الآن!؟

هُنالِكَ شيءٌ ما يَجْعَل الحروف تنْساب نَحْو العزف عليكَ، لكن ما زلتُ خائفة، وقد اِشْتَدَّتْ بيّ الْهَوَاجِسُ، ربما لأن مُفردة الحب تخْتَلف في قاموسي عن معناها لدى قاموسك، مَجْنُونٌ أنت..

ودخول الغرام معك أشبه بالانتحار

دعنا من ذلك وقل إلى أين الآن!؟

قد ملأتُ روحك بالكلام المُعْشَق، وبقيت أنت

في فِرَاشكَ متقاعساً تأبَّى أن تنْهَض.

قل لي لماذا جئت ما أضيّق هذا العالم يا صاحب القلب المجنون، أيها المعتق، سلبت بنظراتك تلك قصة كانت توشك على أن تدفن.

أجبرت محبرة أن تقول وداعاً لحكاية عبثت في مخيلة كاتبة عن الحب قد كتبت، ما زال السراب حولها منتشر، ظننتُ وجودكَ مَزحة فكنتَ الصدَقَ الأكبر.

تكاد الحرب تنهش عظامنا ونيرانها تأكل ما تبقى منا، كان لقاءً عابراً..

استوقفني وكأننا لم نفترق، نظرت إلى عينيه وأنا أنتظر أن يكون أول ما تنطق بهِ شفتيه: بترجعيلي؟

بدأ ثغرك يتحرك وبدأت أحاول فك حركات الشفاه ولكنك بقيت صامتاً، محدقاً في عيني وكأننا في اللقاء الأول، كنتُ أحبك ومازلت أحبك.. ومازال ندى صوتك يطرب سمعي، كانت هذه ليست بالمصادفة، كان لقاؤنا مخططاً لهُ، وكأن القدر يعبث بنا يا صديقي.

كتبتُ لك رسالة لكي أقتص غرورك في ذاك الوقت، لتبدأ حروفي لك بـ:

أعترف بأنني فاشلة في الحب، أو ربما أعطي أكثر مما يستحقون، فيحتلون قلبي، ثم يعلنون الاستقلال ويرحلون.

لم أكن رشا ولا حتى ندى ولا أشبه سلوى، لماذا لا تفكر بيّ كما أفكر بكَ، لماذا لا تتنبأ بماذا أشعر حين لقائك، ولماذا ألح بالسؤال عنك وعليك دائماً؟ لماذا تظن أن تصرفاتي تتخللها تلك الكلمة التي لا أؤمن بها مطلقاً!؟

أكتبها نعم، لستُ ضعيفة أمامك، أحبك أعترف بذلك لكن ليس كحب هناء لعروة فأنت لست عروة، ربما كحب أختك لكَ، أو كعلاقتك مع أقرب أصدقائك ،بدون مقابل، حاول أن تقرأني ثم لا تنظر لعيني عبثاً، فأنا أعترف بأنني قوية وجميلة وأمتلك من الحنان مالا يمتلكه أحد، لستُ مغرورة، رغم أن ذلك ينفعني في بعض الحالات، ولم أرغب أن نكون على هذا الحال اليوم، لهفتي عليك كلهفتي على أصدقاء تكونت معهم علاقة أخوة حقيقيّة، صدقني.، لكن مفهومك الخاطئ بيّ يجعلني أهرب من الوصول إليك، عدم استجابتك لاتصالاتي، تأكد لي أنه يتوجب الابتعاد عنك، و يمنعني من ذلك شيء داخلي ينعت بالغبي ، ربما يكون السبب خلف شعوري بالمسؤولية تجاه علاقتنا ،أحاول أن أمتنع عن محادثتك، وأفاجئ بذاتي تعود لذات القلق، يا

ترى بماذا يفكر حتى لا يستجيب لاتصالاتي ؟ ولماذا أعود للهذيان بقضيته؟ لماذا يغدو ظلك قاسي وحوارك يمتلئ بإشارات الاستفهام؟

تتمرد على محبرتي كوني جعلتك اليوم بطلاً من كلماتي، لم أجعل ذاتك التي يراها الجميع بطلاً لحروفي، إنما الذي أريد أن أراه كما ينبغي، أو كما أشتهي، وليس أنت.. أخذتُ منك استلهام لا يشبهك الآن، ربما أخذتُ منك أعوامك الأولى في الحب، التي اليوم لم تعد لها قيمة لديك، هكذا هم البشر يتمردون على الصدق وينفون من ينظر إليهم بعفوية، لن تكن هذه الكلمات بداية أو خاتمة لشيء ما، هذه طريقتي أنا في شرح ما يدور في ذهني، فالصمت يهيج حشوداً من القلق تجاه من لا يعرفني، أخاف أن أكون مشروع عاشقة في قاموسك، إياك وأن تقترب من هذه الجملة، فسأكون هاجساً لا يفارق حياتك وربما أتحول لحلم لن تحظى به مهما حاولت، كما قلت لستُ ليال أو سهام أو ريتا، أنا لا أنتمي لقائمتك، أخشى أن يكون تفكيرك بي على هذا النحو، فأضطر لأن أجعلك تخسرني لقد حاولت مراراً الحفاظ على وجودك ضمن سيرة حياتي، ولا أريد أن أكون سيدة عجوز تقلق راحتك ولا مصدر إزعاج

يسرق يومك، كل ما أريده أن أكون سبب في ابتسامتك التي أعتقد أنني مكلفة بزرعها على وجهك دائماً.

إذاً حاول ألا تكن نرجسياً وعُد كما بدأت معي، أن كان يهمك وجودي، غير ذلك لك كامل الحق في اختيار علاقاتك، ولا تتعامل معي بغطرسة فختماً ستخسرني، وصدقني أنا لا أعوض، وهذا فخري الدائم بذاتي، افعل ما شئت لكن ليس في محبرتي، عمت صديقاً ينام في مذكرتي.

مودتي

لَمَا لا نكون صديقين!؟

فلا ننتهي..

ما معنى الحب

أن بدأ هذا الشتاء

وكانت نهايته في الشتاء القادم

دعنا صديقين

ودع أمطار عطرك تشتتني

حتى يلتصق بثيابي
ويخطف النوم من جفوني
دع لمسات يديك تخطفني
وتمشي في مسامي حتى تبعثرني
كالرمان.. كزهر الليلكِ
دع تفاصيل وجهك تغزو أحلامي
وشفتاك تدغدغ كف يدي
فتسرق منها الشامةِ
وجعلني كعادتي أسهبُ في الحديث معك وعنك
دع كل شيء كما هو
ولا تقل لي أحبكِ
حتى لا نفترق
حتى يبقى حشد الاهتمام في تفاصيل يومي
وابتسامة عينيك عن عيني لا تختفي
دعنا صديقين

حتى لا أفقدَ عقلي
وأنادي كل من أمامي باسمك
وأرى ألف شبيه لكَ!!

سيدي..
ما الحب إلا خرافة
فتخيل أنني أحبك حتى حينما بصيغة الأمر تخاطبني
كأنك ابن الأندلسي
تفتنني تجاعيد العينين..
وحضورك القليل
أنا منهُ لا أكتفي
قربك ووجودك دائماً أبتغي
لا تقل أحبكِ
أخاف العزوف عنك
فالرحيل من عادتي..
فدعنا صديقين.. حتى هكذا نلتقي..

ولم تحافظ حتى على الصداقة التي رغبت بها دائماً، أردتك صديقاً قبل أي شيء..

حطمت كل آمالي التي بنيتها نحو جعلك أيّ شيء قريب من حكايتي، قابلت وجودي بالرفض، كنت سيئاً للغاية.

كان ذلك اليوم السيء الذي حطم حكاية تقربي منك، إلا أن حديث مصطفى كان الملاذ من سوء ما فعلته أنا بنفسي!

قال لي:

-تخيلي توفت والدتي وأنتِ بدك تخبي الخبر عني حتى ما أزعل!، يوم ويومين و10 وبالأخير راح تخبرني، راح كسر الدني وراح أبكي وجن بس لفترة وأتعود ع غيابها لأن الحياة مستمرة.. فيها وبدونها أو فيني وبدوني مستمرة.

كان لكلماته الكثير الكثير مما احتاجته روحي لكي تهدأ قليلاً، كي أنسى أنني كسرت نفسي وحدثتك، وتمنعت أنت حتى بالوقوف معي والحديث عني أو عن قصصي.

جميعنا مرغمون على أن نعيش العديد من التجارب، ربما نسقط ولكن حتماً عندما ننهض سنكون أكثر قوة، سنشعر بلباقة الحياة تارة وبسخافة من حولنا تارة أخرى، سيقتحم الحب حياتنا وسيحدث داخل قلوبنا جلبة لابد منها، سيقابلنا القدر باستهزاء وسيكشر الواقع عن أنيابه لنا محاولاً أن يستفز مشاعرنا.،

ربما سيكون اختيارنا صحيحاً أوربما ندع الحب يدغدغ كبرياءنا بمهارة، الحق يقال بعضهم سيستمتع بالعبث في قلوبنا وسيفرغونه بنبشه دون رحمة، إلى أن ينفض الغبار من واجهة عيوننا، سنفعل ذلك بجهادنا لإنقاذ أنفسنا.

لم أكن أنوي الحب معك، كنت أبحث عن شيء، وعندما أغلقت عينيّ عنك وجدتُ ما أردت، وربما كل ما اشتهيت.

(9)

في يومٍ ما.. جاءت الرسالة التالية لي..
عزيزتي الكاتبة..

يبدو أنّ القدر سيبتسم لكِ الآن، فهو أصبح على مسافة قريبة منكِ، يسترق النظر إليكِ، ثم يغمضُ عينيه! يخيل لهُ مشاهد عديدة، تكوني بصحبته.. تنظرين إليه، تعشقين ابتسامته، تشكرين الإله..

يداعب وجهك، حتى يصل لكف اليدين، يقبل أطراف أصابعك، ويغرق في النظر إلى الشفتين.

أيتها الكاتبة. يقال إن الحب موهبة، وأن هبة الحب من أسمى نَعِمَ الله عزّ وجلّ، تنزع من القلوب القسوة ويصبح القلب كأفئدة الطير، ويغدو العالم ورديا، ويمسي كل شيء ممكناً، لقد اختاركِ الله لتعشقي بصدق، لتبي الحبيب نبضك، ولكي ترسلي دعاءك لله كل يوم مصحوباً باسم الحب.

عزيزتي الكاتبة.. قد جاء من كان لروحك مصدراً للحياة، وأمسى اليوم كل شيء، أحبيه كما تشتهين، وكما هو يشتهي.

مودتي

نبض قلمكِ أنتِ..

(10)

2017

عام الاختلاف

ما معنى ما حصل في ذلك اليوم؟، هل لكيماء القلوب علاقة بحديث أرواحنا ذاك، أم أن القدر لعب لعبته، وأنشأ لنا المعابر حتى نتجاوز جميع العواقب ونعشق ذاتنا ثم نصبح 1+1=1؟

لم أحبّ الربيع يومًا، ولا حتّى أي فصل باستثناء الشتاء، أُنعَت بلقب شتائية، أعشق المطر والريح وحتى الثلج، أعشقُ نافذتي في الشتاء ودخان القهوة الصاعد نحو السماء.. لكنني التقيته في ذات ربيع.. في حديقة مليئةٍ بالزهور وسط الفضاء.

في أيار من عام 2017.. بدأت الحكاية.. كان يومًا عادياً، أستعد لأنتقل لعمل جديد، أو ربما لقماشة قدري.. للخيوط التي ستنسدل منها وللإبرة التي ستحيكه، كان صباحاً لا يُنسى، كان يوماً طويلًا، في أيار رأيته لأول مرة في ذات نهار، أذكر تفاصيل ذلك اليوم، كان الجو مائلاً للغائم مع ظهور خجول للشمس، كان هادئاً جداً

وعيناه تتكلمان بدلاً من فمه، روحه صامتة، لم أركز في تفاصيل جسده، كان غريبًا، لا يتكلم كثيراً، كان يضحك، وعيناه لا تكف عن التبسم، كان ينظر إلى عينيّ دون أن يخبئ ذلك، شعرت بجرأته رغم هدوئه، أذكر تفاصيل لقائنا الأول، شاب في العقد الثالث من عمره مع أن شكله يوحي بأنه أصغر من عمره بكثير، ذو بشرة سمراء، يمتلك عينين صغيرتين، يمتلك لحية مجذبة ومُعتنى بها جيداً، شعره أسود، وفمه صغير متناسق مع شكل وجهه البيضوي،

شعر بالحرج من كونه قد أطال الحديث معي وهو بالكاد قد عرف من أكون، خرج خلفي مسرعاً تجاوز الجميع ووقف أمامي، واعتذر..

جمعنا القدر مرة أخرى في أيار 2017، تزامنًا مع تساقط الأمطار بغزارة وكأنني على تواصل معها، فالله عرف رغبتي الملحة بأن أمشي معك تحت تلك الحبات، فحقق ما أتمناه، يا الله كم كانت تلك القطرات تعني لي، كانت على هيئة شحنات أمل للروح.. فالقادم حتماً سيكون أجمل.

كان هو كما أشتهي، حدثني عن الحب أشياء كثيرة، ومعادلات تفوق حجمها كتبُ الرياضيات، لم أكن أحدث نفسي، كان قريباً جداً، غبت عن الوعي للحظة، شاهدت شيء غريباً وكأنني سقطت من على الأريكة وأحدث سقوطي فوضى عارمة في رأسي، وفجأة تجمعت حولي العصافير وربتت على كتفي، ثم جاء أحدهم وأسمعني صوتاً يقترب مني

- مرحبا؟

في منتصف الظلمة أيقظني، ثم حملني ووضعني على الأريكة من جديد، كنتُ قد أخبرتك مسبقا أنني لا أؤمن بالحب، جعلتني عينيك ورقة ملمس يديك أن أؤمن بكل ما تحمله كلمة الحب من حروف.

أعلم أنك تتوق لكي تقرأ عنك ما كتبت!

في الصباح التالي..

لا شيء سوى هدوء في النبض، وكوب يانسون وصمت، بيني وبينك كلمة لا أحبذ أن تكون ميّالة للرفض، أتوقع أنّ قلبك يرقص

يدندن.. يزغرد، بيني وبينك مقعدان وطاولة والقليل القليل من الشمع.. وشتاء وبعض من الورد.. أزرق كما أحب

نجلس متقابلين نخطوط سكة القطار قريبين لا نستطيع أن نلتصق فربما أو على الأغلب سنحدث خلل يقطع علينا هذا الصمت، وأنا كذلك لا أدري كيف أقاوم رائحتك التي أوشكت أن تحتل لدي حاسة الشم.

أنا هُنا بين عينيكَ أرقص، أكتب، وأحاولُ أن أرتشفَ من صَمتك قُبْلَةً تمثلني، وتحوّل صمتك لحديث متعبٍ وشاق، أحاول أن أضبط نفسي أمام ذبول عينيك، وألّا أفتَتن بخبز وجهك، وألّا أتذوّق من رحيق صوتِك مقامَ النهاوند. فوقَ الطاولة وضعتَ يديك ولمست كفي، فتسارعَ النبض؛ لأنّك وحدك تعلم مدى هشاشة قلبي أمام رؤيتك، فكيف تقول عن الحب: "إنّه مجرد فكرة"، الحبّ أن أثمل بكَ، أن أتذوّق كلماتك، أن أراك في أحلامي وأوهامي، أن أخلّدك، وأكتبك، وأتخيلك في كلّ شيء، أن أخلع ماضيَّ أمامك، وأنثر الشغف من حولك، أن أبعثِر لحيتك، أن أعطي قلبك عدادًا إضافيًا للنبض، أن

نتناول عشاءً شهيًا في نهاية اليوم، ثم أخلد لصدرك -الحياة؛ لأستمع معزوفتك الختاميّة، وأنام، ولن أعبأ لو مِتُّ بعد هذا.

(11)

انتهى أيار، وجاء حزيران وتبعثرت حولي القصص، كانت نظراتك تكشف كل شيء داخل قلبك، مجيئك الغير مبرر له لمكان تواجدي، حديثك الملغوم الدائم معي، وكلماتك الرنانة في أذني، حاولت أن تقحمني عالمك، ولكني كنتُ اخشى الحب، أشعر بك وبما تأوي إليه، أستمتع بشغفك، لذلك كنت أهرب في كل مرة تحاول أن تحدثني عن حبك لي، مخافة أن أفقدك، كنتُ أظن أن مرادف كلمة حب هو فقد، جئت أنت وبدلت جميع المفردات ومعانيها لدي، رحل حزيران وجاء تموز واشتدت عواصف الغرام وحدثتني عن ما يحتويه قلبك تجاهي، عن غرامك بعيوني، أذهلتني وأضعتني وبعثرت كل شيء من حولي، صمت، ثم حاولت النهوض والتكلم لكن لم أستطع، كنت خائفة ومضى الشهر وأنا على ذلك المنوال.

جاء آب وبدأت قصتنا بالتحول لحقيقة، تعارف أهلنا وبدأت الزيارات العائلية لتمام مشروع زواجنا وحدثت أولى تلك الخطوات في أيلول تكونت أرواحنا وأصبحنا شخصاً واحداً، وتكللت أصابعنا بخاتم

يقال إنه في بلادي وفي العالم هو دليل على ارتباط الأشخاص بصدق، ولدت بروحي في ذلك اليوم مرة أخرى تكونت بالقلب بكل بساطة.. كالوتين المستغرق في النبض، يتلو الغرام بحروف مرتلة كالناسك قبل كل صلاة، ويعتزل النومْ وتزهر في حقوله سنابل القمحْ.. وتكثر الأزاهيرُ ذات اللون الوردي، لتكسو شفتي قُبلةً موجِعةً وتشتعل من أمامي المراكبُ المبحرة في مياه عينيك.. تبعث في النفس الطمأنينة، أحببتُه وأحبَّني كما لم يحب أحد.. بقيتْ تلك القبلة الوردية يتيمةً طوالَ لقائي الأخير معك.. رحلتْ في اليوم التالي.. لبلاد لا تشتهر بقصص الحب تلك القبلة اليتيمة باردةً ع غير عادتها، كانت بلا صوت وكما يغرد العصفور لحناً بلا آلة للعزف وتجتمع آلاف النحْلات حول الخلية دون جدوى للحصول على العسل.. كانت لوهلة هكذا ثم تناثر كل شيء حولَ محيط القلب، وأصبحت دقاته فجأة بعد استدارتك وذهابك بلا صوت..

لم تكن الحياة عادية في لحظات لقائي معك، لطالما كنت أنت كل شيء، ومصدر سعادة في أي شيء، كنت حتى تشرين.

تِشْرِين يا شَهْر ميلادي.. بكَ تشتعلَ أبواق الحَنِين.

ربما لم نجتمع في تشرين وكان جسدك بعيداً عني في ذاك الشهر، لكن أشعلت هدوء هذا الشهر ليغدو وكأنه يوم العيد، لقد أورثت قلبي في الرابع عشر من هذا الشهر كل أنواع السعادة، حتى غزوت روحي وتسللتَ لباطن آلامي وانتشلت كل الأوجاع، وكأنني بالفعل اليوم ولدت وعمري الآن عام واحد بسببك أنت.

هل تعلم يا شغفي، أنني أحادث السماء كل يوم وأدعو أن نجتمع في أقرب وقت، تعال معي وأنظر لنافذتي فهي اليوم تشتعل بالأمطار الغزيرة وكأن الله لبّى ندائي وسنح لي فرصة الدعاء المستجاب، فمن شدة هول تلك الأمطار باتت الستائر بالتطاير، أشعلت مدفئتي الصغيرة وجلستُ قرب النافذة مع كوب من اليانسون، والبخار يتدفق منه، أصبحت الغرفة دافئة جداً، إلا وحبَّذا وشاح يلتفّ حول جسدي، يدفئُ قلبي..، ويكوِي الحَنِين في صدري.

الشتاء هو فصلي المدلل، فأنا أتوق للعيش في مكان تكسوه الثلوج، في بلد لا يعرف الكره وبعيداً جداً عن الحرب، في قرية صغيرة، يتبادل بها الجميع أطراف الحديث، لا يمكن للقيود أن تجتمع

هنالك، مكان رائع، كأفلام الكرتون، يجتمع بها الناس جميعاً حول موائد الطعام، أحب الدفء ذاك الذي سيتكون من شرب الحساء معاً، أو تناول الطعام بصحبة جميع سكان تلك القرية.

ماذا لو أن الشَّوقُ يَخْتفي؟ والمسافات تَنْتَهِي..

واليَوْمُ عِندَ منتصفِ اللَّيْل، تَحتَ فَتِيلَةُ السِّراج في الطَّرَف الآخِر لشارعِ مَنزِليّ، نَلْتَقِيَ.

إذاً تعال لنلتقي بعد حين، بعد يوم أو ساعة أو بعد عاماً ونيف، نلتقي.. ربما في آلة التصوير، أو في معنى جديد.. نلتقي بين أن تأتي أو لا تأتي.. جميعها ينصفني.. يكفي أن تعدني ولا يهم أن وفيت في الوعدِ، تعال لنعيد تلك الذكريات، ونستعيد البعض من الدفء المحيط في صدري، ذلك الدفء الذي كلما جذبتني إليك، زاد النبضِ في قلبي، أتذكُر.. عصافير ذلك الصباح، وهم يداعبون لحظات انتظاري لك، على حافة الرصيف، أترقب ظهورك أمامي، أتذكر نظرتي المشحونة شوقاً إليك! يوم أحببتني.. في سن العشرين، وهبتك قلبي ورسمت طريقنا كما أشتهي، ها أنا اليوم أتوق لأن أجلس معك مجدداً على حافة الرصيف..

تحادثني عن أشيائك وأحدثك عن حروفي، أسرد بك خاطرة وأكتبك قصيدة، وينتهي الحنين، فتسرقني من بين تلك التفاصيل، تداعب قلبي، تلامس روحي، وتهمس في أذني المزيد من كلمات الحبِ، قل لي متى سنلتقي، ومتى ستنتهي الحرب، ومتى ستعود إلى ذلك الحي، الذي يشهد على أولى قبلاتنا. نلتقي.. لأنك كما قال شمس التبريزي ستُقابل شخصاً قد تكْفيك صحبتهُ عن العَالمين.. وبك أنا اكتفي.

فعن أي جمال تتحدثين يا فاطمة..

هو كحكاية ما قبل النوم، كضوء النجوم في ليلة مظلمة، كشعاع القمر وكسنابل الشمس، هو كبيت ريفي في منتصف حقول الذرة، كدفء حضن أمي.

لم يكن وسيماً كـ سالفادور دالي ولا عاشقاً كـمحمود درويش.. وليس لديه ذلك الشنب التركي الملفت للانتباه، ولحيته غير منتظمة، لم يكن حكيماً كـ أنطون تشيخوف، ولا شاعراً كنزار قباني، ولا فيلسوفاً في الحب كأرسطو، لم يملك حروف كحروف إدريس جماع في الغزل، لكنه كان أجمل من كل شيء ...!؟

لا أصف شخصًا أو حتى جسدًا، لطالما وصفت الشّعور أو وصفت مسبب ذلك الشعور، تلك الروح التي تأثر بنبض قلبي، والتي تتحكم بعدد خفقاته، أو ليس الحب هو مقياس للسعادة، ها أنا اليوم أصف حياتي التي باتت بعد ذلك اليوم كما أشتهي.

يا الله لمّا لم نلتقي من قبل، أسأل نفسي هذا السؤال كثيراً، هل كنا بحاجة صدفة لتجمعنا، ربما قد يكون السبب متعلق بالأساطير، كل حكاية لها مفتاح موجود في الزمن الماضي، الحاضر يا عزيزي ليس إلا تكراراً لأحداث حصلت من أجدادنا أو أجداد أجدادنا، صدقني ليس هنالك شيء جديد ممكن أن يذكر أو يخلد في التاريخ، حياتنا عبارة عن عملية تكرار، تكرار ليس أكثر.

يا سكر قلبي وضَوءَ الشمسِ عِند الشَّفَقِ، ذكرتك في سُجودي وأودعتك عندَ ربي لا تلْم قلبي إنْ بكى

اشتياقاً ولا تقل لدمعي كفى فأنت أولُ النبضِ والغرامُ بكَ لا ينتهي يا ساكنَ

الروح يا بحةَ صوتي .. يا همس دعائي ..

رفقاً بقلبي الشغوفِ.. رفقاً بنبضي

أنا منك وأنت مني

لتستعمر قلبي بالشغف ولا يهم أن كانت مميتة، خذ بعض مني أوخذني كلي، فأنا المشتاقة إليك لا أعرف حدوداً للحب، أو ضعني سواراً حول معصم يديك ووشاحاً يدفئ صدرك متى شئت أو كحلاً يزيد من عمق عينيك، فأنا يا ذا الروح المشاكسة أغرق وأغرق في وجهك والحبرُ فاض من جنوني، كل الأوراق تغدو فارغة والأقلام لا معنى لها بلا همس صوتك يا حرفاً لا يغيب عن كلماتي ويسرقُ منّي هفواتي أنا لا أغفر لك الغياب فأنا أشتهي عناقاً ضُمني إليك ودعني أروي قلبي من وتينك يا صوتاً يهمس في أعماقي فيكوي قلبي عشقاً ويهديني لا تغب عن عيوني فما معنى الصبحُ بلا ذبول الجفونِ والشمس أقسمت بالإشراق أن حللت بالهيامِ سيداً، فرفقاً بحنيني يا ذا الروح المبعثرة في شغفي، يا شرياناً في القلب يجري.. يحملني ويأخذني من آلمي، خذني إليك كلي أو بعض مني قبل أن يحل عليك جنوني فما معنى الحياة إن لم أكن أنا منك وأنت مني!!

(12)

قالوا عنها حظّ ورزق.. لطالما كانت أجمل النّعم:

"أفئدة الحياة"

في عام 2017 تغيرت حياتي كثيرًا، كنت أشتهي الأصدقاء فأصبح لدي العديد منهم/ بعضهم كانوا أشباه أصدقاء، وآخرين كانوا تماماً كإخوتي.

لا أحد يقول عن زيته عكر، ولكن أنا لم أكن أعرف كيف أختار الأصحاب وكيف يجب ألا أحدث الجميع عن نفسي، لكل إنسان حكاية ولكل منهم عدة وجوه، لا يمكن أن يتملك الشخص وجهاً واحداً، لا بد من تعدد الشخصيات به، حينما يكون علينا أن نضحك ولكننا في عزاء ما، فهنا يجب أن نرتدي قناع البكاء، تماماً أن حصل معنا عكس ذلك، فلا بد من قناع الضحك ونحن في أقصى حالات الألم، وهذا الذي حدث تماماً مع مجد.. لقد توقف لبرهة، حاول أن يضبط دموعه ويمنعها من التساقط، لم يكن ضعيفاً أكثر من كونه عاشقاً، تلعثم الكلام في شفتيه، سرد قصته، كان يشهق بين كل كلمة وكلمة، حاول أن يمتنع

عن السقوط، لم يكن قوياً، كان عصفوراً بلا جناحين، يفعل الشقاء بالحب أكثر من ذلك بالروح البشرية، نتمنى الموت مرة ونزغرد على آلامنا ألف مرة أخرى، يفعل الحب بنا ما لا يستطيع حتى الموت أن يفعله، فالموت يستهدف الجسد، أما الحب أحياناً يدمر الروح.

أما هي.. تلك السمراء والكحل يتطاير من عينيها، نظرتها تشفي جميع الآلام التي تدوي في القلوب، مع أن خلف ذلك الجمال هنالك حزنٌ يغزو وجنتيها فالدمع يحاول أن يمشي نحو شفتيها..

كمعنى حروفها..

تشبه بزوغ الزهر،

بداية الجمال، براعم الفرح..

كالبسمة الواقعة من أول الشفاه حتى أسفل الذقن، كنسيم الصباح، كالمرهم المرمم للجراح، كقلب الطفل عند أول نظرة للحياة، نقية تشبه السماء، تشبه أجمل الأشياء.

لا تدري أين وجهتها، تنظر للأعلى، تدعي الله أن يجعلها دائماً الأفضل، إلا أن حكايتها ضاعت بين ثنايا روحها، تلك الجميلة تدعى زيلان.. وللقصة بقية.

(13)

حكايتي كانت مكللة بالصدق، كنتُ دائمًا أشكر الله على هذه النعمة التي وهبني إياها بعد محاولاتي بالبحث عنهُ، بعد خيبات القدر، نكيبة صديقي الذي كان الحب ملاذه الوحيد من حكاية انتهت قبل أن تبدأ، في يوم من شتاء 2017 ربما في كانون الأول، كنتُ أنا في طريقي للعودة لمنزلي، جاءني اتصال

المتصل: سلام

-أي خيا

-خيتا فيكي تجي أشوفك؟

-خير سلام (شُبه) صوتك؟

-قالت عني خاين يا فاطمة؟

-طيب سلام خلينا نلتقي، أنا قريبة من الساحة.

- وأنا جاي، انتظريني

التقينا خلال 15 دقيقة في ساحة الجامعة ومشينا باتجاه كلية الهندسة وجلسنا ع حافة الطريق، لم أرى سلام بتلك الحالة مطلقًا،

كانت الكآبة قد سيطرت على روحه، وجهه لا يبتسم، كان يبكي بلا دموع، يختنق عندما يردد تلك الكلمة (خاين) بس أنا مالي خاين خيتا!

لقد وهب روحه وكل ما لديه فداء لشيء ظنه حبًا، كان يردد أريد ذلك الشيء، لم أعد أريدها هي، أريد فقط تلك التي خصتني بها، (خيتا كيف فينا جيبها؟) تلك الكلمات مازالت ترن في أذني، أثار حيرتي، جعلني أستقيم في جلستي وأنظر إليه طويلاً، كالمجنون يحارب ربما من أجل قطعة خشب، لكنها كانت ليست مجرد قطعة، كان همهُ أنها منها، إنها ذكرى! حتى لو كانت أليمة! (حبسي أنت وحريتي أنت) كان فقط يريد تلك الحروف المكسوة على قطعة خشب.

فاجأني ذلك الشاب، أفزعتني رغبتهُ في أن يغتنم تذكاراً منها!، ذكرى لن يكون لها معنى في مستقبله، كانت دمعته تقترب من جفنه، لكنه سرعان ما يشعر أنه يجب ألا يبكي، فتعود لجوفها..

كانت نصيحتي لك يا سلام هي ألا تلتفت للوراء، رغم صعوبة التنفيذ، لكن كان الحل الأمثل لكي تخرج من هذه الزوبعة،

كل ما عليك أن تبقى كما أنت ووجهك وجسدك نحو الأمام، كل ما عليك هو أن تترك كل الأشياء السيئة، تلك التي كانت سبباً لآلامك، هي لا تريد سوى أن ترى حطام روحك في كل مكان، في كل شارع، في مكان اللقاء الأول، في ذكرياتك، خيا.. ستكون وحيداً لبرهة من الزمن، ستشعر وكأن الوقت حاقدٌ عليك، وستغدو عقارب الساعة كأنها ثعابين ستنقض عليك وتشل حركتك، حتى توشك أن تقنع ذاتك أنك مت!! ستتذوق كل مرار العالم، ستبكي، وتصرخ، وستغلق فمك براحة يديك حتى لا يسمع أنينك أحد، ثم ذات مساء ستختلي بروحك وتضرب قلبك كل ليلة، ستسقط بينك وبين نفسك، لكنك لن تُهدم ولن تتحول لحطام، وستشرق الشمس ذات نهار وستعبر كل السكك وستصل لذلك النور الذي ستنسى يوماً ما كان سبباً لوجعك، وستكون يوماً ما كل ما تريد، سيجعل لك الله من هذا الألم جسراً نحو الأعلى، أسمعتني!؟ نحو الأعلى.

لم يكن سلام الصديق الوحيد الذي كان الحب سبب آلامه، فعلي ايضاً كان له النصيب الأكبر من تلك الأوجاع، هذا الرجل

الصغير، الذي لم يعرف الحياة يوماً، تفتحت عيناه على طفلة، ظنها حبيبته التي سيقاتل العالم من أجلها، فكان خطأه صدقه، فتحولت حكايته لمجرد جرح، أرجو ألا تعبث به السنين فينزف دماً ويخسر أكثر مما خسره.

(14)

إنّها الساعة الثامنة إلا خمسة مساءً، في حلب وبهذا التوقيت وبظل الحرب، تغدو الشوارع فارغة، لا وجود لأحد في مثل هذا الوقت، بعض السيارات، الشوارع معتمة، حتى القطط تختبئ من هذا الظلام، لا أدري ما سر شباط مع قلمي، تنفتح قريحته بشدة، كأن قلمي تعرف على ورقتي في هذا الشهر، طبعاً بعيداً عن أنه شهر الحب كما يعتقد البعض وكما آمن الكثير بأن 14 شباط هو عيد الحب، يوم الحب أو يوم القديس فالنتين، هو كما قرأت عنه ليس إلا احتفالاً مسيحياً، يحتفلون به بالحب والعاطفة لذكرى القديس فالنتين، حتى بات هذا العيد متعارفاً عليه في كل العالم، ويحتفل به العشاق على أنه عيدٌ لهم، لا أظن للقديس فالنتين الذي عشق ابنة السجان في القرن الثالث الميلادي، سبب في عشق قلمي لورقتي في هذا الشهر!.

جاء شباط وكان لحكاية سلام تتمة، صديقي الفلسطيني، ولد في حلب، حيث أنّ عائلته جاءت إثر الحرب التي اشتعلت في ديارهم، لتكون حلب ملاذهم الوحيد، سبعون عامًا وهم ينتظرون العودة.

ذهبت مع صديقة لي في مهمة لمنطقة يقطنها الفلسطينيون في حلب، (تدعى مخيم النيرب)، تلك المنطقة التي كان صديقي سلام يحدثنا عنها، على أنها شبيهة جدًا بأزقة مدن فلسطين، لوهلة شعرت من حديثه وكأن قد كان لي نصيب في زيارة فلسطين حقاً، كما كنت لطالما أشتهي زيارة هذه البلاد المغتصبة،

آه يا ذات الحلم الوردي..

كنت أتوق للمسِ جدرانها، والمشي في أزقتها، أتحسّس بقدميّ أرصفتها، كان الحلم الأكبر أن أصلي في الأقصى، وأحدثه أن الحرب فعلت بنا كما فعلت بأبنائه، وأنني أرغب فقط في السلام، أخذنا سلام في جولة في المخيم، أطلعني على شجرته المفضلة ومشينا على سكة القطار، ثم قال لي هنالك كانت تقطن بطلة أول قصة حب خضته في حياتي، ثم أخذنا في فسحة عبر أسواقهم، وبعدها مشينا في شوارع غريبة، كانت عبارة عن أزقة ضيقة، ثم جلب لنا فلافل فلسطينية، لا يزال مذاقها الطيب عالقاً تحت لساني، كان يوماً ماطراً، يوماً مختلفاً حقاً.

ظننت نفسي في فلسطين، لقد زرنا عكا.. زرنا حيفا وغزة والضفة وكان اللقاء الأجمل مع يافا، وحتمًا سنصلي في الأقصى في الزيارة القادمة.

(15)

لا يمكن أن أزور فلسطين، وأعبر مدنها وأستنشق هواءها الرطب، ولا أكتب عن حنظلة من منّا لا يعرف هذه الشخصية التي رسمها ناجي العلي الفلسطيني، تلك الشخصية الكاريكاتيرية.. صبيّ في العاشرة من عمره الذي أدار ظهره للقارئ وعقد يديه خلف ظهره ولأن قوانين الطبيعة لا تنطبق عليه لأنه استثناء.. كما هو فقدان الوطن استثناء فقط أمسى حنظلة رمزاً للهوية الفلسطينية..

مقدمة اقتبستها من أحد المواقع الإلكترونية وأثارت فضولي هذه الشخصية لأرسخها أنا أيضاً في كتاباتي، فاخترتُ عنواناً مناسباً لتلك الشخصية مع موضوع مختلف تماماً عن قصته ليغدو لدي (حنظلة والحب)، من منّا لم يسمع عن روميو وجولييت، عن مي زيادة وجبران خليل جبران عن ريتا ومحمود درويش، عن قصص العشق الخياليّة، من منّا لم يعشّ قصة حب تجلّت في روحه أجمل اللحظات، وذاق حلاوة ومرّ العشق، وكل تلك الأسماء التي ذكرتها لم تتكلل ولا قصة بنهاية كما

أرادها أولئك العشاق، لكن هل يا ترى كان يجب أن تتوج تلك القصص وتغدو كما شاءَت القلوب؟؟

ربما لو حصل ذلك لن يذكرهم التاريخ، سيسأل البعض وما الفائدة من التاريخ إذا لم يحظوا بالحياة التي لطالما كانت أحلامهم تسير نحو ذلك، سيتساءل البعض لِمَ التفرقة بين عاشقين؟ لِمَ لا حرية في الحب؟ (حرية الاختيار)، وهنالك أسئلة كثيرة، أظن أن قوانين الحياة لا دخلّ لها في الحب بالذات وأن كل العشاق يستطيعون أن يكونوا معاً إن أرادو ذلك.. ستقولون كيف؟؟؟ لكن دعوني أكمل..، نعم يا سادة أليس الحب يشتمل على كلمة تضحية.. لكن هنالك شيء أكبر من ذلك كله.. نحنُ لا نمتلك قوة عظيمة تجعلنا نضحي بشيء يعادل عاداتنا وتقاليدنا، نحنُ أضعف من أن نحب حقاً..

ولأن فقدان الحب استثناء كما هو فقدان الوطن فكان الموضوع الذي ربطتهُ أنا مع هذه الشخصية لا يختلف كثيراً عن جوهر قصة حنظلة. وايضاً سيمسي حنظلة رمزاً لقضية الحب. وسيدير ظهره لمن لا يحق لهُ بأن يحب.

(16)

قصة علي، أو كما يرغب حكاية آيةُ علي..

ها هي السماء تبارك لي هذا الكتاب، فتهبني الإبداع مع كل حبة مطر، أكوام التراب تضايقني، لكن رائحته بعد تساقط المطر جعلتني أكتب وأكتب وأنسى كل شيء من حولي ...

أردتُ اليوم أن أعود لمحبرتي وأن أخلص لها، اليوم وفي هذه اللحظة قررت أن أعتزل البشر وأن أصاحب القلم والكتاب وأن أختلي بذاتي، وأن أسرد في مولودي هذا قصة علي.. ذلك العاشق المبتور شغفاً، الضائع في سراديب هذه الحياة، المسلوب من محبوبته، والطفل العاشق، كان لقائي به بموعد وحديثه عن هيامه صدفة والصدفة بحد ذاتها موعد، هذا الشاب الذي لم يتجاوز العقد الثاني من عمره يسرد لي حكاية شغفه، يقول أحببتها ليس لأن الصبح يغار من جمالها بل لأن لها قلب ليس له أربعين شبيه.

-ما نمت أمبارحة يا فاطمة؟

-طبيعي، اللي بعشق مثلك يا علي، ما لازم يعرف النوم!

كنتَ مشوش القلب والعقل، بعد حديثك مع آية، لطالما أثرت حيرتي بشغفك لها، الذي يتوج في البعد والغياب ومازالت تعشق سرابها البعيد، أتذكر حينما حدثتني عن سفرك للشام وعن بحثك عن آية في وجوه العابرين، كنت مختلفاً يا علي وكنت رائعاً.

-معقول نستني؟

-ليش لتنساك؟

-ما بعرف، كان ردها بارد، حسيتها ما بدها تحكي!

-يمكن بدها أنت تحكي!!

ما أتعسنا نحن العشاق حينما نغرق بحر الحيرة ما بين يحبني أو لا يحبني؟ هل أحدثه أم سيحدثني؟

آية تحبك يا علي، من لا يحبك يا علي، أيها العاشق الصغير. صدق عينيه وابتسامته التي تسطع عند ذكر اسمها على شفتيه، كافية لكي تثبت للعالم أجمع أنهُ يحبها.. أقسم بالله يحبها.

- كل يوم بفكر فيها..

- أربع سنين غياب ولساتك بتحبها

-ما بقدر فكر ما حبها، جاي ع بالي بس شوفها أضربها، عانقها، قلها ليش هيك عم تعملي فيني، بعدين ضمها وأبكي.

ما هذا الغرام يا علي، أي حب هذا، صارحتني في الأمس عن كمية البكاء التي أغرقتك في زاوية فراشك، عن كتم صراخ الشوق إليها، ما يثير جنوني، هل هنالك أحد يعشق مثلك أيها الصديق المكبل بمحن الحب، وكأنك شريط لفيلم سينمائي من زمن روميو وجولييت، أو ربما أنت أعظم منهما، شريطك كان مملوء بالصور البيضاء، التي تعرضت للشمس فتسببت في حرقها، كان في بادئ الأمر كل شيء يمكن إصلاحه، نقود ونفوذ ونضوج ثم تتقدم لخطبتها، هذا ما يلزم أي شاب في مجتمعنا حتى يستطيع الفوز بمحبوبته، لم يكن للحب مكان في حياتنا في هذه المدينة التي تتبع نظام الطبقات، فيغدو العاشق ضحية وتستمر الحياة في لعب دور الجلاد، هكذا هي قوانين مدينتنا.

- فاطمة

- أي علي؟

-حكت معي، قالت إن نحنا ما منظبط نكون سوا، في حدا عم يلعب بعقلها، انا متأكد، فاطمة أنا شو لازم أعمل؟

علي يا صديقي يا صاحب القلب المبهم بالهيام،لم تكن تلك الفتاة التي تشبه قلب علي لذلك لا يمكن للحب أن يجتمع في حكايتك معها، لابد لك أن تعاني كثيراً قبل أن تبدأ حكايتك الحقيقية بالظهور، أقسم لك ستعشق فتاة أفضل وستقدّر علي أكثر، ستكون ملاذك الوحيد، وستنسى كل ما عانيته في الماضي، ستحب شخص يشبهُ رقة قلبك وسيعوضك عن كل ما فاتك، سيخلع رداء الحزن عنك ويتوجك بتاج مكلل بأجمل أزهار الشغف الليلكي، لأنك صاحب أطيب قلب ولأنني لطالما كنتُ شاهدة على ما عانى قلبك من تلك الحكاية يا أخي، في الحقيقة إن الجميع قد يعمل علي إيذائك ، ولكن هنالك شخص واحد فقط يقدر معاناتك " فختماً سيأتي يوم وستنسى كل ما مضى من حزن.

هو أخي بعقل رجل وقلب طفل، فاجأني حينما كان يستغرق النظر الي، ثم التفت وقال: أتدرين يا فاطمة إن أجمل ما فيكِ هو نقاء وجهك (ذلك النور الساطع منه يكفي ليريح القلب).

على أيها الشاب المجنون صاحب الروح الجميلة دمت لي أخاً لا يكرره الزمن مطلقاً.

(17)

في أقل من دقيقة، تشعر بأنك أنت لست أنت!!

كأنك لا شيء وكل شيء ولم تعد تفقه أي شيء.

هبة تلك الشابة التي لم يتجاوز عمرها الثلاثة عقود، نقية كنقاء الورد، ترغب في سكون يعمّ قلبها، في إجابات لا جدوى لها، لكن محتواها قد ينقذ عقلها من الهذيان، هذه الفتاة التي لا تعلم ماذا تريد، دائمة التأنيب لضميرها، لمشاعرها، لقلبها، لكل شيء يحتويه عقلها، ساكنة في جلستها، صامتة في غضبها، قصتها ثورة من ثورات الغضب التي دمرت تلك البلاد، لكثرة الخيطان التي تشابكت في قصتها.

لم تعد تدري من هو عدوها ومن صَديقها، فغاصت في بحر الشكوك تلك الصغيرة، هبة تشبه مقولة الكاتب الراحل أحمد خالد توفيق: اعتقادك أنّ العالم سيعاملك بلطف لأنك إنسان طيب، يشبه اعتقادك أن الأسد لن يأكلك لأنك شخص نباتي!

تمامًا كلطف هبة في هذا العالم، تمامًا كسذاجة هذه الطفلة التي لم تعد تبصر أمامها من شدة ما نشره البشر من ضباب حولها، لتقرر

الرحيل هذه الفتاة للبحث عن سُبل للنجاة من مكر تلك الثعالب، الذين لطالما حاولوا أن يغلقوا في وجهها كل الأبواب، وأن يسقطوا أمامها مفتاحاً وحيداً ليكون مفتاحاً للحزن مع العديد من الأسئلة تمزق جدران حياتها دون الوصول لإجابة تفي حقها في النجاة، صديقتي اللطيفة جداً يقول جلال الدين الرومي:

اذهب حيث يرتاح قلبك، اذهب حيث ترغب أنت، حيث تشعر بالأمان والاطمئنان لا تأخذ اتجاهاً مجبراً عليه كن جزءاً من شيء يعجبك أنت و إن كنت فيه وحدك!..

كوني على يقين أن الحياة يومًا ستنصفك لأن الله لا يخذلُ أحدًا.

(18)

صَدَق من قال أنّ الحب حياة لمن ليسَ له حياة.

وأنا ككل العشاق، لطالما سألتُ نفسي هذا السؤال؟

لماذا أحبك.. لا أدري

لماذا أنتَ لا أدري؟

سؤالٌ دائماً يراودني

لا إجابه لا مفرّ

ولا حتى هناك مَن مِن حيرتي ينقذني

لماذا تشتعل روحي

كلما نطق ثغرك بحروف اسمي

قد كنتُ أقوى مما تعرفني

ماذا فعلت بي حتى أصبحت هشة

كلمة منك قد تغرقني

عيونهم لا تهمني

وكل الكلمات التي تهمس في أذني

لا أسمعها .. صوتك وحده من يبعثرني
لماذا أنت ..
لا أعلم ، لا أدري
كل الحروف لا تستطيع أن تنقذني
وإن مررت بقربي وفاح عطرك
من ذا الذي يلملم حينها بعثرة قلبي
لماذا أحبك !؟
كأنك جبران أو سيد قطبِ
أو ربما المتنبي ..
كأنك في روحي ترتشف كل العللِ
لماذا أحبك ..
والخيال أنت والحلمُ أنت
واستحالة أن أقول لكَ ماذا يراودني
فجمال الحب ألاّ يقال ..
بل أن يتكلل بالأفعال

فأنا أحبك وأقاوم لمس يديك
أو الغرق في عينيك
فلا تسأل ..
ودعك ضائعاً في بحرِ محبرتي
في أحرف العطفِ .. في الضمِ والسكونِ
المشحون بالنظرِ
فهوانا مكلل باللقاء .. يسعدني، وللحب يتوجني
يعطيني ولا يأخذ مني..
فأنا الغريق فهل من منقذِ
يبدأ بحرف الألف وينتهي بالكافِ
وبعدها فليمزق الشراع
لماذا أحبك .. لا أدري
من ذا الذي يسأل
أهنالك مفرٌّ من الغرقِ

***

(19)

في قاربٍ طويل مطليّ باللون الأسود، ومزين بالورود الحمراء، يطلق عليه اسم الجندول، وبينما ، يتمايل الزورق في أحدى قنوات مدينة البندقية في إيطاليا كنا أنا وأنت جالسين فيه مسندة أنا ظهري على صدرك، وأنت تلعب بخصال شعري البني، وتشم رائحته بين كل حين وأخرى، ونغرق في النظر لجمال هذه المدينة، لنمتع نظرنا لطبيعتها الخلابة ولمبانيها الشاهقة ولجمال شوارعها، ثم نصل لأحد المرافئ، وتمسك يدي لننزل ونكمل سيراً نحو أحد المطاعم، نجلس متقابلين على طاولة خشبية مصنوعة من خشب البلوط، لونها البني المحروق يجعل من الطعام نكهة خاصة، كانت الشموع مصطفة حول الطعام وكنت أنت تنظر إلي وكأنك أول مرة تراني، أنهينا طعامنا ثم اتجهنا نحو المنزل، كنا متعبين ورغم ذلك لم يغلبك التعب، فأظهرت شقاوتك وركضت نحوي تُحاول أن تسرق ما يتسنّى لك، فكانت قبلة..

ليت ذلك الحلم الذي راودك في الأمس يغدو واقعًا.

(20)

وأنت يا عزيزي كنسيم الصباح، كصوت البحر، كطمأنينة الدعاء، كروح زرعها بي الله لتكون لي أجمل قدر.

ما أجمل هذا الصّباح..

يصادف اليوم الخامس عشر من آذار، هذا العام لم يكن الشتاء إلا ضيفًا سريع الرحيل، لم نشعر به إطلاقًا، في آذار تزهر الأحلام وتتغير الأقدار، ويصبح للزّهر لون، وللعطر رائحة وملمس الكتاب حكاية، هذا الشهر المقدس لدي لم يكن لمولدي علاقة به ولا لقصة شغفي ولا حتى لأي نجاح منسوب لي علاقة بهذا الشهر، لكنني في أيامه أشعر بطمأنينة وشفاء لنفسي وببداية جديدة نحو كل شيء.

ففي الحياة لابد من ميثاق يتم بين الإنسان وذاته، يتعاهد به على إسعاد روحه وعدم ظلمها والسعي نحو بناء جسده والسير على قواعد أساسية في بناء جسد يناسب الروح.

ودائماً اجعل هذه الكلمات أساس ميثاقك لتنعم بحياة كما ترغب أنت لا كما يرغبون هم، ليكن عطاؤك من قلبك، وحينما تضحك دع

روحك تضحك من تلقاء نفسها، ابتعد عن الكذب وكن أنت لا نسخة صنعها الآخرون منك، وحافظ
على من كان مصدرًا لضحكة عينيك.

وطن

دعني أسرح معك

وألقي عليك قليلاً من الكلمات

أولاً أسمح لي أن أطارد حزنك

وأسرقهُ منك

فأنا يا سيدي أهوى أحزانك

ولا تدع وجهك يرسلُ لي بعض الإشارات

أيا فتاة دعيني والله لن تلقي معي سوى

المعاناة

فلن تلقى مني سوى كلمة:

اصمت

وكأنك رجلً أجنبي لا يمدهُ أي صلة معي الآن

يا هذا في أوراق التوت

خطت حروف

لا تموت

وتبقى ملازمة للحياة

والله لو رأيت بغيرك مسلك

لكرستُ البحث عنهُ مدى الحياة

لكن كما قيلُ

هنالك مدن تعشق العذاب

وأنا حلبُ

وهل هناك أقسى من ذلك العذاب

قدري أن أكون مدينةً

فقم يا سيدي

قد حان وقتُ الصلاة

فذلك الناسك

قد دق كل الأجراس

وصوت المؤذنِ سيُعيد لك الحياة

ستقول ارحلي

وأنا يا وطن

كالمرجان

ملتصقة بالبحرِ

ولستُ على حكمِ قلبي

بسلطان ..

(21)

نقية أنتِ كلون الزهر.. كأول قطرات المطر

كصوت البحر.

حينما كنت طفلة، كنت أعشق متابعة أفلام الكرتون، والعيش مثلهم، كوخ صغير، مدفئة، الثلج يتساقط في الخارج، الكثير الكثير من الكتب، وجدتي تحيك الصوف، وبقربها قطة صغيرة وأمي تعد الحساء والمنزل دافئ جدًا، وفي الصّباح أذهب إلى المدرسة مع أصدقائي، على دراجتي الهوائية وأدخل صفي وأجلس بقرب صديقاتي ونتبادل الأحاديث والضّحكات، وبعد المدرسة نذهب لنلعب في منزلنا الخاص بالأصدقاء، الذي صنعناه بأنفسنا على جذع شجرة، صغيرة مكسواً بالأخشاب وله نافذة نشاهد من خلالها بحيرة ممتلئة بالبط، كانت تلك هي أقصى أحلامي، ولهذا اليوم مازالت أتابع قناتي المفضلة سبيس تون (كونان، حكايات قندس، بابار، سندريلا، حكايات ما أحلاها، سالي) والكثير الكثير ولكن كانت بطلتي المفضلة جودي أبوت تلك الفتاة التي كانت تكتب لصاحب الظل الطويل تلك

الشخصية الكرتونية التي لطالما تابعتها بشوق، كانت تشبهني لحدٍ ما، ولهفتي لرؤية شكل ذلك الشّخص، كانت تستهويني فترة جلوسها خلف طاولتها، لتمسك ريشتها وتبللها بالحبر وتبدأ بالكتابة: عزيزي صاحب الظلّ الطويل، وأتوق أنا لمعرفة ماذا ستكتب له.

أحببتها كثيرًا فقررت أن أكتب على خطاها..

(22)

الرسالة الأولى في 5 كانون الثاني من عام 2015

عزيزي العابثُ في مخيلتي..

يقال في الحب أشياء وأشياء، ومحال أن يكون المحب في حالة رياء، مثلاً لأحدثك عن جودي آبوت ملهمتي في هذه الرسائل وحبها لجون سميث صاحب الظل الطويل، ليتك تستطيع سماعي الآن وأنا أكتب هذه الحروف المصفوفة والمنظمة بشكل يليق بك، عزيزي صاحب الظل البعيد متى سأجدك، وأرتل أحاديثي الشيّقة معك، وأحدثك عن أحلامي وعن حياتي، أود أن أشكرك على وجودك في مخيلتي، فذلك يخلق في نفسي سعادة لا توصف، فمجرد التفكير بك يجعل الروح ترتاح، آه كم أتوق للقاء يجمعنا، فيحول كل ما كان خيال إلى واقع مكسو بمزيج من رائحة حبات الفراولة مع نصف قطعة شوكلا مكللة بنكهة السعادة لتكملها أنت بنصفك وتغدو الحياة معك أجمل شيء..

خيالي لم يكن رجلًا عاديًا، كان يشبه الفراعنة، الإغريق، وربما يشبهُ العرب فقط، أو ربما كان من آلهة الحب، هو أسطورة، يهزّ عرش قلبي كلّما حدثني، بالرغم من قسوة حروفه، في الواقع يصفني بالغباء ويحرض روحي على نسيانه، ويشعل النيران في جفوني، فلا أعرف النوم، وكأنه رجل عصابات وأنا رهينة لديه وأنتظرُ حتفي.، لكن فكرة مراقصة قاتلي قبل موتي تروقني، مجنونة وأعترفُ بذلك.

ما أجملك أيها العابثُ..

(23)

الرسالة الثانية في 7 كانون الثاني من عام 2015

عزيزي العابثُ في مخيلتي..

يبدو أنّني ساذجة بالفعل، حينما أكتب لوهم، ربما لشخصية لن ألتقيها وربما لحكاية لن أعيشها، غريبة حينما أكتب عن بطل غير موجود، فجودي أبوت كانت تكتب لأحد شاهدت ظله، اما أنت لست إلا روح مكونة من حبر وورق وربما فقط من ثلاثة حروف!

دعك من ذلك الآن وقل لي أين أنت يا عزيزي تعال وأخبرني من تكون؟

أتعلم حينما كنت أشاهد جودي كيف تكتب رسائلها وترسلها لذلك الشخص الذي أعطته هي الاسم والمكانة، أرغب بشدة أن اخترق شاشة التلفاز وأذهب للعيش معها هنالك في ذلك الزمان (ورقة وقلم) وصندوق بريد، يا الله ما أتعس حياتنا الإلكترونية هذه، ما أجمل الظرف البريدي الذي كانت تتلقاه، والحبر الذي كانت تكتب به، ولكنك عابث لا تشبه صاحب الظل الطويل فأنا أحب غباءك في بعض

الأحيان.. وكأننا بقادرين على خلع قلوبنا متى شئنا، كأننا بقادرين على إلغاء روح سكنت فينا مدى الحياة..، غريب أمر ذلك العابث وما أغرب من أمره إلا روح تهشم فيها كل شيء ومازالت قادرة على الكلام.

الشكر لله أنك من صنع مخيلتي..

(24)

الرسالة الثالثة في 23 كانون الثاني من عام 2015

عزيزي العابثُ في مخيلتي

لم أعد أفهم على نفسي فما زالتُ تائهة بكَ وبي وحتى في هذا العالم، أحلامي تجمدت ،ما زالت ملهمتي رغم كل ذلك ما زالت ملهمتي ، خيالاتي تناثرت فلا تهتم وصمتك يشعل الغضب داخلي، في ذاكرتي أنسج منك حكاية ، لطالما كنتُ أنتظر ردك بفارغ الصبر، إلا أنّ الصبر ملّ وربما أنا من مللت، كما أنّني ما زالتُ دائمًا أنتظر عودتك متلهفة لمعانقة روحك حينما أتخيل استقبالك فور وصولك للواقع بعد خيال طويل، أنت حينها لن تراني فأنا سأختبئ خلف أحد ما، مع أنني أعلم أنهُ سيكون وجودي يعني لك الكثير لكن بلا جدوى، سأنظر إليك و سأملأ نفسي ما يكفيني منك لبضع دقائق حتى أستطيع أن أغادر المكان بلا دموع، ثم سأرحل، ستسأل عني ويقولون لك ربما مشغولة وستأتي، لكن لن آتِ .. أظنّ أنه بات من الغباء أن أتخيل ذلك باستمرار أو الغباء الأكبر أن أنتظر.. رسالتي الأخيرة..

(25)

ذات يوم كان أحَد زبائن المكتبة يقول: لا شيء قادر على التأثير في القارئ أكثر من الكتاب الأول الذي يمس قلبهُ حقًا.

إذ أنّ صدى الكلمات التي نظن بأننا نسيناها يُرافقنا طوال الحياة، ويشُيد في ذاكرتنا منزلاً سنعود إليهِ عاجلاً أم آجلاً. لا يهم حشد الكُتب الأخرى التي سوف نقرأها، ولا عدد العوالم التي سوف نكتشفها، ولا حتى مقَدار الأمور التي سوف نتعلمها ثُم ننساها.

كارلوس زافون "ظلّ الريح"

في نهاية مارس أشعلت السماء غيومها، وتسربت حبات المطر نحو الأرض، وجاء نيسان بحلته المعتادة، لا جديد، يأتي ويذهب دون أن أشعر به، لم يكن لي ذكريات في هذا الشهر، لدرجة نسيت وجوده بين إخوته.

يقالُ عني شتائية، لا أحبذ الربيع والصيف هو عدوي اللدود، لي صداقة قديمة مع عزيزي الخريف، لكن شغفي قد استولى عليه الشتاء، فلا أدري ما سرّ الوحي في هذا الفصل، وكأن قلمي على علاقة

غير شرعيّة بالمطر، فأنا عندما أحتاجه يخونني ويصمت، لكن حينما تمطر السماء ينثر الحبر على الورق، ويصبح فنجان القهوة ملاذي في عزلتي مع الأوراق والحبر، أحاول الكتابة عن كل ما يخيل لرأسي الصغير، كأن أصف عصير المخلل بنبيذ فاخر مصنوع من أجود أنوع العنب، فقط لأنّه مشروبي المفضل.

تبدأ القصة من فتات التّراب الممزوج بحبات المطر، لتتحول تلك الرائحة لعطر تفوق رائحته حدود الخيال، هذا اليوم ينقصه أنت ...!

أين أنت الآن؟

لقد اختل توازُن عقارب السَّاعَة المرصَّعة بالشوق

والزَهْر أعلن الذبول وبدأ بالهذيان

هذا المساء يَشهد على أحزان الغياب

فأين أنت؟

النبيذ نفد من الشفتين

وحول بركة المَاء

رائحتك تتجول في أركان يومي

والحنين يبني فوق الجبالِ جبال
أين أنت الآن؟
لتأتي وتشدّ وصال هذا الخيط الرفيع
وتُسمعني ترانيم صوتك البديع
أكره أن أنتظر..
وستون يومًا وعيناك تسكن وسائدَ نومي،
ولهفة الغرامِ ملءَ القلبِ تستعد للإنصات
والقافية تتعجَّلْ في نسج الكلام
أما الجدائل تشتهي مرور أصابعك
حتّى وصل الشغف لعناقك أَوْج الهيام
لتجلس على حافة الرخام
وتسمح للروح بأن تتنفَّسَ من عطرك
والمطر يهطل على وحي همسك
فيغار الغيم منكَ والنَّدَى أمامك يعلن الاستسلام
تحدَّثْ معي الآن، لأكتب لكَ المزيد وبدون استئذان

(26)

يأتي الصّباح في الرابعة فجرًا، أحاول أن أنهض من سَريري، أسمع صوت الآذان أقف على قدمي وأتوجه تلقائيًا للوضوء والصلاة، أحيانًا يغلبني النّعاس وينال مني ويجعلني أكمل نومي، ثم تبدأ الحروف والكلمات في القفز في مخيلتي، تسرق مني النوم وتجعلني أجلس للتأمل، أو ربما للخيال..

بين عتمة الليل ونسائم الصّباح، هنالك خلف النافذة إشارات تدلّ على وجود رياح ورائِحة السّماء تظهر بأنّ المطر قادم، وأنا وحيدة في منزل ريفي صغير مصنوع من الخشب، أحاول إشعال مدفئة الحطب، أجلس بقربها وأحمل بين يدي كتابًا وكوبًا من الحليب الدافئ الممزوج بملعقة عسل والقليل من حبات من عيدان القرفة، بدأ المطر بالهطول، وكأننا في منتصف كانون، من غزارته أسمع ارتطام حبات المطر على الأرض، وأستمتع في ذلك الخيال، إلى أن يعود لي عقلي وينبهني أن ذلك هو مجرد حلم!

ثم تأتي كلماتك وتجعل من الحلم حقيقة.. لـ يندهشوا من ارْتِسَامَ البسمة على وجهي وأنت بعيد، هم لا يعلمون أنك المسبب الوحيد لاتساع الشفاه، وارتفاع الخُدود، وتدفق الدّم في الوريد.

لكلّ بداية نهاية، وكل نهاية بداية جديدة، ولأن البدايات تخلق من رحم النهايات، انتهت القصة من فبراير هذا الشهر المضياف، صاحب أكبر خسارات في تاريخي، الشّهر الذي يجب أن أستعد فيه لتوديع أشخاص ولاستقبال آخرين، لكن الكفة كان تميل دائمًا نحو توديع الأفضل، واستقبال (لا شيء) ربما كانت نهاية كل شيء جميل بدايةً لشيء جديد، لا أدري ما هو؟

في هذا الشّهر ذهب خيا كما علمني على نطقها، خيّا سلام، إلى عمل آخر، عمل أفضل، سلام شاب من فلسطين، وذهبت زيلان برعم الحياة التي لطالما كنتُ أستمد منها مصدر الضّحكات، تلك الروح المفعمة بالنّشاط، وتوقفت الحياة في أول أيامه، ثم بات كل شيء ضمن الضباب، في هذا الشهر تغيرت الأحداث..

في هذا الشهر فهمت مدى الآلام التي تحدثها القلوب لنا، أذكر جيداً تلك اللّوعة، حينما توقف لوهلة كانت كلماته نابعة من قلب يرجف كصوت المطر، حينما ابتلع دموعه وسقط دون أن يحدث أيّ صوت، حينما خانته روحه، نعم في شباط شهر الحب، ذقت مرارة الفِراق، والفراق ليس بين حبيبين، لطالما كان ذلك الفراق أعظم من ذلك بكثير، إنّ أسوء ما في هذا العالم هو أن تمضي لحظات السعادة بلمح البصر، وأن تجلس لحظات الحنين في صوت ضحكتك، لتتحول لقهقهة تأكل الروح من أعماق الحياة.

"آه أيها الحبّ، لو أستطيع أنا وانت أن نتفق مع القدر على تدمير هذا الطابق البائس الوحيد للعالم إلى قطع صغيرة، ثم نعيد بناءه من جديد كما تشتهي قلوبنا". غسان كنفاني

الحبّ وبعضُ الأحداث هنا، ليسَت إلّا نسجَ الواقع المتخيّل، لا علاقة لي بهذا، رغم تورّطي به، إنّها التناقضات العجيبة لميثولوجيا الحياة، الحرب، الشّتات.

تمت

حقوق النشر والتوزيع محفوظة

ببلومانيا للنشر والتوزيع